الــذات الجريحــة

إشكاليات الهوية في العراق والعالم العربي

(الشرقمتوسطي)

ســليم مطــر

«طبعة رابعة منقحة»

مركز دراسات الامة العراقية. ميزوبوتاميا / جنيف. بغداد

دار الكلمة الحرة. بيروت

عنوان الكتاب: الذات الجريحة
نوع الكتاب: فكر وتاريخ
أسم المؤلف: سليم مطر/ جنيف www.salim-matar.com
الطبعة: الرابعة المنقحة
تاريخ الإصدار / نيسان 2008
إصدار: مركز دراسات الامة العراقية ـ ميزوبوتاميا / بغداد ـ جنيف
دار الكلمة الحرة / بيروت
عدد الصفحات : 496
لوحة الغلاف: اللبوة الجريحة/ جدارية عراقية من الفترة الآشورية
تنفيذ الخرائط: المهندس خالد الياس بطرس – استراليا / khalid@olomsoft.com
تصميم: محمد خير المغربي ـ دمشق
حقوق الطبع محفوظة لمركز دراسات الامة العراقية

الإشراف الاداري: طارق كامل tariq_963@yahoo.com
موقعنا على الانترنت: www.mesopotamia4374.com

مادامت النمور لا تمتلك مؤرخيها...

فـأن حكايـــات الصيـــد

ستظل تمجد الصيادين..

مثل افريقي

محتويات الكتاب

المدخل : الانسان الممزق الهوية في هذا العالم العربي 7

الفصل الأول : تجديد الهوية الفكرية 25

- ثنائية التطرف والضياع وحتمية الفكر الوسطي الجديد 27
- الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين 49
- حول المرأة والفلسفة الصينية «التاوية» 61
- نموذج للفهم العرقي القومي للتاريخ والنظرة التغريبية للمجتمع 70

الفصل الثاني : تجديد الهوية التاريخية العراقية 81

- العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس 83
- التفريس باسم العروبة 102
- تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي 117
- التشيع العراقي وريث أديان النهرين 137
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران 141

الفصل الثالث : تجديد الهوية الشرقمتوسطية «العربية» 177

- عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي 179
- مع الوحدة العربية.. ضد القومية العربية 190
- بلدان الهلال الخصيب والهوية المنسية 199
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب السوري القومي 219

الفصل الرابع : تجديد الهوية التاريخية للشعوب «العربية» 247

- الميراث القبلاسلامي ومستوجبات التصالح معه 249
- المانوية.. نموذج لتاريخنا المسروق 258
- مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق 300
- ترجمة تراثنا العربي الى العربية 281
- ملاحق معلوماتية عن العربية والسامية وأصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب 287

الفصل الخامس : تجديد الهوية الوطنية ـ الحالة العراقية 331
- المعارضة العراقية والبناء الفكري الجديد 333
- الهوية العراقية الممزقة 363
- الشيعة والمشكلة الطائفية في العراق 380
- قضية كردستان الكبرى وحقوق الفئات العراقية 399
- ملاحق معلوماتية عن إشكاليات الوضع العراقي وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية 437

خاتمة : اقتراحات تكميلية لبناء هوية وطنية ـ الحالة العراقية 478

ملاحظة للقارىء : *ان تسمية (شرقمتوسطي) نحت من (شرق متوسطي) مثل (رأسمالي) من (رأس مالي). ونعني بها بلدان العالم العربي التي تقع جميعها شرق البحر المتوسط، بما فيها البلدان البعيدة عن ضفافه مثل العراق والأردن والجزيرة العربية، وهي تقابل أوربا التي تقع غرب المتوسط. راجع الفصل الثالث.*

المدخل

الإنسان الممزق الهوية في هذا العالم العربي

أتذكر في أواخر الستينات في بغداد، وكنت في بدايات سن المراهقة والوعي السياسي، أني طرحت سؤالاً على أحد أصدقاء أبي، وكان هذا الرجل فقيهاً ورعاً يتحدث دائماً عن الدين والسياسة:

ـ يا عم قل لي من فضلك إذا كان الإسلام هو دين الله والمسلمون هم الأولى برحمة الباري عز وجل، طيب لماذا هكذا نحن العرب متخلفون وضعفاء أمام اليهود والغرب؟

وكان جواب الرجل بسيطاً وصادقاً يعبر بجلاء عن بقايا العقلية «العثمانية» السائدة :

ــ اسمع يا بنيّ: إن الله سبحانه وتعالى منح لكل ملّة موهبة : اليهود وهبهم المال، والنصارى العلم، أما نحن فقد وهبنا الإيمان. لهذا يا ابني هم لهم المال والدنيا، أما نحن فلنا الله والآخرة... الجنة بانتظارنا لو تمسكنا فعلاً بديننا وتركنا ملذات الدنيا.

أما أنا، فلأني أعشق الدنيا وقد أمضيت سنوات طفولتي بالحرمان والخوف والإذلال، فإني تركت الدين بكل عنفوان الشباب واتجهت بكل روحي الى الدنيا الى أوربا والغرب حيث المال والعلم وملذات الحياة.

حصل هذا في أوائل السبعينات، وكانت بغداد ومدن العراق وجميع المدن العربية تغلي بالتيارات الثورية والقومية والماركسية مع بقايا الليبرالية القديمة. الجميع وحتى البسطاء من أبناء الشعب كانوا يتشدقون بالتقدمية والاشتراكية والماركسية والوجودية والإلحاد وكان الشعار المهيمن بين المثقفين : «أنظر الى ورائك بغضب» وهذا يعني كل بساطة نبذ كل ما هو ماضي والاتجاه نحو المستقبل كالحصان الجامح.

بأسم الثورة والتقدم رحنا نسخر ونحتقر كل ما له علاقة بماضينا وعاداتنا وتراث شعبنا. صحيح أننا كنا نغطي كل هذا بمقولات قومانية وطبقية تفتخر بالامة العربية وتمجد الطبقات الكادحة، ولكن في تفاصيل الفكر والنظر كنا نعتبر رجعياً وظلامياً كل ما له علاقة بالدين والتقاليد والتراث الوطني والقومي.

بأسم الخوف من الطائفية والرجعية تجنبنا كل ما له علاقة بالممارسات والتقاليد الدينية. صار واحدنا لكي يبين تقدميته وتحضره يبدأ بالسخرية من الدين والرجعية طبعاً. نتشدق بمقولات ماركس وغوركي ولينين، وإذا كان واحدنا متمرداً وجودياً يحتقر السياسة كما يدعي فعليه بكامو ونيتشه وسارتر. بأسم الخوف من العشائرية شرعنا باحتقار كل تقاليد وتراث أهلنا وبصقنا على مفاهيمهم التي يؤمنون بها منذ آلاف السنين. صرنا نخجل حتى من أسمائنا من ثيابنا من لهجتنا من مأكلنا. حتى الخمور كنا نحتسيها ليس لأنها من تقاليد مجتمعنا بل لأنها رمز للتمرد على الدين وتقليد للتحضر الغربي. رحنا نفتخر باستماعنا لموزارت وبتهوفن وحفظ أكبر عدد من الأسماء الأجنبية ابتداءاً من بيكاسو ودالي وشلوخوف وأنتهاءاً بكاسترو وغيفارا وماوتسي تونغ. نسخر من أمهاتنا عندما نراهن يلطمن أو يبكين على مقتل الحسين، بل إننا كنا نأسف لوجود الجوامع والعتبات المقدسة ونتمنى لو يأتي اليوم الذي سنحولها الى جامعات ومنتديات للثقافة والشباب. وصل بنا الأمر أننا في العام 1977 صفقنا للحكومة «التقدمية» وهي تضرب بطائراتها «الاشتراكية»! تجمعات «العشائر الرجعية»! في ذكرى عاشوراء.

تحت الأقدام

رواية «المسخ» لكافكا تتحدث عن ذلك الإنسان البائس الذي يستيقظ يوماً فيجد نفسه قد تحول الى صرصار. وينتهي مصيره بسحقه تحت الأقدام. يمكننا دون مغالاة كثيرة مقاربة حال الإنسان العربي وعموم العالم الثالث مع حال ذلك المسخ .

معظم الطروحات التي تناقش أسباب بروز الحالة الدينية والتطرف السياسي تؤكد على العامل الاقتصادي وانتشار الفقر وغياب الديمقراطية، وأن المسؤول عن هذه الحالة هي الحكومات وحدها. لا أحد يختلف على دور الحكومات الأساسي في انحطاطنا الى مرحلة الخراب، لكن هذا لا يعفي أبداً جميع الأجيال المثقفة والمسيسة التي ساهمت في هذا البناء المشوه للعقل العربي منذ مطلع القرن وحتى الآن. بشكل أوضح نقول: أنه ليس الفقر وغياب الديمقراطية وحدهما السبب في حالتنا تلك، إنما أيضاً عملية الانمساخ العقلي وتشويه الهوية الوطنية والإنسانية التي أخضعنا شعوبنا لها وساهمنا بحسن نية في قتل كرامة الإنسان وتغريبه وسحق شعوره بتفرده وخصوصيته.

منذ أجيال عديدة وجميع تيارات الحداثة والعلمانية، حكومية ومعارضة، ليبرالية وقومية وماركسية، لا تكف عن إشعار المواطن بـ «تخلفه ورجعيته وغبائه وانغلاقه ووو... مادام لم

يتبنَّ الحداثة». نذكره بتخلفه في كل جوانب حياته وعقله: مأكله، مشربه، ثيابه، مسكنه، تقاليده، حكاياته وأغانيه، وسائل علاجه ومعيشته. الأكثر من هذا، أشعرناه بتخلف معتقداته الدينية وطقوسه المقدسة.

مشكلتنا أننا منذ مطلع القرن اندفعنا بسذاجة المستعبدين للتخلص من ظلامية الحقبة العثمانية وميراثها الإسلامي المغلق. من سخرية القدر أن العثمانيين الذين ظلوا لقرون مغمضي الأعين تماماً عن الثورة التكنولوجية العلمية المتفجرة عند جارتهم أوربا؛ فجأة في مطلع القرن الحالي أعلنوا ثورتهم العلمانية الحضارية، بمراهقة طائشة قرروا أن يلغوا بأعوام ميراث قرونٍ بأكملها. سيد أتاتورك اعتقد أن تطور الأتراك وتحضرهم يكمن بخلعهم الطربوش وارتداء القبعة الأوروبية المتحضرة التي كانت قبعة الفلاحين والعمال والفقراء، باعتراف الكثير من المثقفين الأتراك أن أكبر جريمة قام بها أتاتورك ضد ثقافة الشعب التركي، أنه غيَّر بجرة قلم الكتابة العربية الى الكتابة اللاتينية مما خلق قطيعة وحشية بين التاريخ العقلي للشعب التركي وحاضره الجديد. لقد وصلت السذاجة العثمانية الى حد فرض قص الشارب ومنعه حتى الآن في الجيش التركي.

كان من المعقول أن تتجنب النخب العربية هذه العلمانية التركية المراهقة، فتعترف أولاً بحقيقة وجود الإسلام واستحالة إلغائه بمجرد تبني الحضارة الغربية، ثم العمل على تطوير الإسلام وضخ الحياة والحضارة اليه ودفعه ليستعيد عنفوان فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بدينها المنفتح الواعي والمتنوع. ألم تكن دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس عواصم للتعددية الحضارية والدينية والفكرية تضاهي ما هي عليه الحضارة الغربية الحالية من تنوع ثقافي وتعددية فكرية وسياسية؟

يبدو أن المحاولات الأولى في أواخر القرن الماضي، مثل الأفغاني والطهطاوي والكواكبي، كانت تصب في هذا المجال وتبحث عن الطريق الوسط للعودة للاسلام الحضاري وتجديده، ليستوعب من ناحية متطلبات الحداثة والتقنيات الغربية ومن ناحية أخرى يحافظ على الشخصية الوطنية والخصوصية التاريخية الأصيلة. لكن هذه المحاولة قضي عليها في مهدها مع مطلع القرن أمام الزخم الهائل لتجربة أتاتورك وكذلك الاجتياح الأوروبي للمنطقة عسكرياً وتكنولوجياً وعقلياً.

من أهم نتائج هذا الانكسار العربي ظهور الانشقاق التاريخي الذي لا زال سائداً حتى الآن: انفصال التيار الديني عن التيار المدني، أي بقاء الدين محصوراً في التكيات والجوامع

والمدارس الفقهية المتخصصة، وبالتالي بقاؤه خاضعاً لكل إرث الحقبة العثمانية المغلق والمتعصب والساذج. أما التيار المدني فقد لجأ لأسهل الحلول، إذ تبنى العلمانية الغربية وحكم على الدين بالتخلف والرجعية وراح يشيع بصورة تلميذية ساذجة كل المظاهر والعادات والتقاليد والأفكار والمبادىء والأذواق والمشاعر الأوروبية، مع انسلاخ مفتعل عن الماضي الوطني باسم محاربة الإرث العثماني المتخلف.

ما زلت غير متدين، أقولها ليس بفخر أبداً بل لأنها الحقيقة ولكي أدفع عني «تهمة» الميول الدينية السلفية التي سيقذفها بوجهي الكثير من العلمانيين لكن تحرري من الانبهار الساذج بالنموذج الغربي جعلني أتحرر من تبجحي بإلحادي وحداثتي وتقدميتي وترفعي عن معتقدات شعبي أو معتقدات أي شعب على وجه الأرض. الآن فقط أدركت أن التعصب والظلامية يمكن أن تكون أيضاً صفة للعلمانيين والملحدين والعلميين. جرائم العصر الحديث وحروبه الاستعمارية والأهلية ومظالمه ودكتاتوريته معظمها مورست وتمارس من قبل أناس ليس لهم أي علاقة بالدين. الدكتاتورية التي تمارس في البلد العلماني الاشتراكي الفلاني ليست أرحم من دكتاتورية البلد الديني الفلاني.

حتى وصولي إلى أوربا كنت أحمل صورة ساذجة ومضخمة عن المجتمعات الأوروبية وحضارتها الخارقة: الناس في أوربا كلهم يلبسون نظارات طبية، يأكلون العلم ويشربون الثقافة ويمضون لياليهم بأحلام ساخرة عن الله. تخلصوا من الدين ونسوا من هو المسيح. تراهم إما يساريون يتعبدون في محراب ماركس وسارتر وغيره، أو يمينيون يتعبدون في محراب مونتسكيو وكانط وبرغسون وغيره. ليس لديهم عواطف ومشاعر شخصية ومحسوبيات جماعية، بل هناك العقل والحسابات العلمية وروح التنظيم والانضباط الحضاري. نساؤهم يا صاحبي ملتهبات ومتفتحات بكل معاني الكلمة، ورجالهم باردون ولا يعرفون الغيرة، والأهل يطردون أبناءهم وبناتهم بعد سن الثامنة عشرة !!

بعد اكتشاف أوربا بدأت أوهام الشرق تتبدد. أول ما لفت انتباهي أنه ليس كل رجال أوربا يشبهون «آلان ديلون» ولا كل نسائهم يشبهن «بريجيت باردو». إنهم يختلفون عنا في الكثير من مظاهر الحياة التقنية والسياسية والثقافية، لكنهم مع كل هذه الاختلافات لا زالوا بشراً مثلنا. أو بالأحرى عرفت أننا بشرٌ مثلهم! هم مثلنا يلهثون وراء لقمة العيش، ويحلمون بالغنى والمرتبة الاجتماعية. مثلنا يقعون في الحب ويتألمون وينتحرون من الخيبة ويقتلون بسبب الكرامة

أو الجشع. ثـم هـم مثلنـا لا زالـوا يعيشون عـذابات المرض وقلـق الموت وفـراق الأحبـاب، ويعانون الحيرة أمام معضلة الله وسر الوجود.

في أوربا دُهشت عندما أدركت أن الخمرة ليست رمزاً للحداثة، والأوروبيون ليسوا جميعاً يقدسون الخمرة، وثمة الكثيرون يحتسونها بصورة محدودة أو نادرة، بل هناك دول مثل السويد قد فرضت الحدود الصارمة على تناول الخمرة وقننتها مثل الدواء، لأنها سبب للكثير من المشاكل الصحية والاجتماعية بالإضافة الى معظم حوادث الطرق.

الأهم من هذا في أوربا اكتشفت أن هناك أيضاً شيئاً اسمه الدين، الكنائس موجودة في كل قرية ومدينة يدرسون اللاهوت ويحضرون الشعائر ويحتفلون بالأعياد المقدسة، يرسمون الصليب على معظم أعلامهم ويمنحون أطفالهم أسماء القديسين، بل إن الكثير من مدنهم وقراهم تحمل أسماء القديسين والأولياء. حتى الأميركان وضعوا على دولاراتهم عبارة : «نحن نؤمن بالله».

الأوروبيون مثلنا، فيهم الطيبون وفيهم الأشرار، وبعضهم يعاني أيضاً من العقد والانحرافات النفسية. ربما هم أسوأ منا في بعض النواحي، يعيشون الانمساخ والتآكل بسبب هيمنة روح المنافسة وثقافة السوق والعزلة الفردية وتلوث الطبيعة والمخدرات والعنصرية وحوادث السير والانتحار والتسلح والخطر النووي.

قبل اكتشاف أوربا كنت أرثي لحال الشخص الذي يذهب للحج أويؤدي فروض الصلاة والصوم وفي أحسن الأحوال كنت أقول عنه : «مسكين ضيع شبابه». الآن بدأت أدرك أن الصوم والصلاة والحج والبكاء في عاشوراء ممارسات إنسانية لخلق حالة من السلام الروحي في نفس الإنسان، ومحاولة للحوار بين الإنسان والكيان المطلق، ليكن الله أو بوذا أو براهما أو المجهول أو أي كان. حتى الإنسان العلمي الملحد يلبي من دون قصد حاجته للاتصال بالقوة المطلقة : الاستماع الى الموسيقى والرقص والإبداع الفني والتمعن بالجمال والذوبان في خلجات العشق والحب بأنواعه، كلها بالحقيقة طقوس لمناجاة الكائن المجهول الأعظم.

ترى الأوروبيين لم يتركوا شيئاً من التراث والتقاليد إلا درسوه وسجلوه وعملوا على إحيائه وتطويره. وأن سر حضارة أوربا وعنفوانها يكمن في قوة شخصيتها التاريخية وحفاظها على أصالتها التراثية والدينية. الثورة العقلية الأوربية لم تبدأ كما نتصور برفض المسيحية ومعاداة الكنيسة، بل قبل كل شيء كانت بالعودة الى التراث الأوروبي الماقبل المسيحي

والروماني واليوناني. وبالتالي تطوير المسيحية وتطويعها لكي تتقبل التراث الأوروبي القديم ومن ثم تتقبل العلم والحداثة الأوروبية الأصيلة.

صحيح أنهم أخذوا الشيء الكثير منا حتى قبل الإسلام والأندلس. هل نسينا أن الديانة المسيحية قد ولدت ونشأت في منطقتنا وصنّاعها والمبشرون بها خلال قرون كانوا من أسلافنا! بل إن معظم الطقوس والتراتيل الكنسية مقتبسة نصاً من تراثنا، حتى ثياب أسلافنا لا زال يرتديها كهنة أوربا: الجلباب والطاقية ثم الفوطة البيضاء على رؤوس الراهبات!

رغم ذلك فإن الأوروبيين طوعوا المسيحية حسب واقعهم ومتغيرات عصرهم ابتداءاً من الكاثوليكية ثم البروتستانتية وصولاً الى العلمانية التي لم تلغ المسيحية حسبما نتوهم بل طوعتها حسب حاجات المجتمع والدولة الجديدة. نهضة أوربا ابتدأت بالكشوفات الجغرافية ثم الفتوحات الاستعمارية وحتى التصفيات العرقية. كل هذا والكنيسة كانت حاضرة والمبشرون المسيحيون كانوا في مقدمة الجيوش بل إن الكنائس الأوروبية منذ الحروب الصليبية كانت تعتبر المسيحيين العرب ناقصي الإيمان، ولهذا عملت منذ قرون وحتى الآن على إخضاع الكنائس العربية النسطورية واليعقوبية والمارونية والقبطية الى هيمنة الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية.

هاهي أوربا بعد قرون العلم والعلمانية، لم تتخلص أبداً من المعتقدات الدينية بل هناك عودة كثيفة الى الدين مع نمو مستمر للطوائف الجديدة مسيحية وشرقية. ثم بروز التيارات السياسية والفكرية المطالبة بالتخفيف من هيمنة العلم والتقنيات واحترام البيئة والاعتراف بالطب الشعبي والعلاجات الروحانية وحتى السحرية.

مختصر الحديث أخيراً في أوربا سقطت تفاحة نيوتن على رأسي واكتشفت الحقيقة: أن الأوروبيين لا تدور حولهم الشمس بل هم بشر مثلنا يدورون حول الشمس بكل طيبة وتواضع. لا هم ملائكة كما يصورهم علمانيونا ولا هم شياطين كما يتوهمهم متدينونا. الفرق الوحيد بيننا وبينهم يكمن في مشيئة التاريخ والجغرافية التي منحتهم منذ قرون فرصة بناء ذاتهم وخلق عناصر قوى مادية ومعنوية تضخ فيهم الاحساس بالتفوق والهيمنة على العالم «المتخلف». هذا التفوق هو الذي يجعل الأوروبيين يصمدون أكثر أمام أسباب الانمساخ والتمزق ويحافظون على نوع من الاستقرار الاجتماعي السياسي.

أما نحن فلأننا دائماً وراء أوربا، فإننا بحاجة إلى أجيال وحروب وخيبات لكي ندرك أن الغرب بدأ ينتبه لمغالاته في عبادة العلم والتقنيات واحتقار التقاليد الروحية والمواريث الإنسانية.

الدشداشة والسيارة

ذات يوم كنت أتمشى مع صديق بمحاذاة بحيرة جنيف ، فجأة سمعته يردد بسخرية :

ـشوف شوف... يظل هؤلاء العرب متخلفين دائماً.

رأيت أمامنا مجموعة من الخليجيين بثيابهم التقليدية اصطفوا ليلتقط لهم أحدهم صورة وخلفهم البحيرة.

استمر صاحبي بتعليقه :

ـ شوف هؤلاء «المعكَلين» ـ أي لابسو العقال لم يتعلموا حتى الآن أنه ليس من الذوق أن تحشر نفسك في الصورة. شوف الأوربيين يا أخي لهم حس جمالي بالأشياء ، تلاحظهم لا يحشرون أنفسهم بالصورة إنما يصورون المشهد وحده ، أما نحن فنبقى متخلفين.

لم أجبه وبقينا نسير. بعد خطوات قليلة رأينا المشهد نفسه ، ولكن هذه المرة لم يكونوا عرباً بل كانوا يابانيين!

حينها التفتّ الى صاحبي وسألته :

ـ ما رأيك إذن بهؤلاء اليابانيين ، هل هم أيضاً متخلفون؟ تراهم أكثر من العرب يحشرون أنفسهم ليس فقط في الصور السياحية بل حتى في صور التجسس.

هذه الحكاية أثارت فيّ عدة معان ، أولها أننا دائماً نقارن أنفسنا بأوربا وكل شيء لا يمارسه أو يتذوقه الأوروبيون هو بالتأكيد متخلف غير حضاري. حتى أحاسيسنا الجمالية وأذواقنا مسخناها حسب مقاييس أوربا. وقعنا دون وعي منّا بـ «العنصرية الذاتية» ، السخرية والاحتقار لشعبنا وأحاسيسه وأذواقه.

الجانب الآخر من الحكاية ، أن صاحبي سخر من هؤلاء العرب لأنهم «معكَلين» ، رغم أني أعرف جيداً أن أباه مثل أبي كان يرتدي العقال العربي والصاية العراقية. لكن «الحضارة» عودتنا السخرية من «أهل العُكَل» ، لأن الحداثة والتقدم ارتبطا لدينا دائماً بـ «الأفندية والخواجات».

أتذكر أننا أبناء الحارات الشعبية في بغداد كنا نعاني من الشعور بالنقص من لبس «الدشاديش» مقارنة بـ «المتمدنين» الذين يرتدون «البيجامات». في أوربا اكتشفت ان البيجامة يرتدونها للنوم فقط. أما نحن فتعودنا أن نرتديها ونفتخر بها في الطرق والمقاهي. هناك طرفة في

قرى أهوار العمارة تتحدث عن طفل ريفي أتى يوماً المدرسة مرتدياً البيجامة وعندما سأله المعلم عن الأمر، أجابه مفتخراً:

ـ يا أستاذ هذا قاط (أي بدلة) جابه أخوي من بغداد.

قضية الثياب هذه قد تبدو ثانوية في نظر الكثيرين، ولكنها بالنسبة إليّ خلاصة التعبير عن الاحتقار الذاتي الذي عشناه ونعيشه. الآن فهمت لماذا أصر غاندي منذ إعلان تمرده وحتى موته على ارتداء الملابس التقليدية الهندية رغم أنه أمضى شبابه الأول كمحام عصري وأنيق على الطريقة الأوربية. موقف غاندي هذا لعب دوراً كبيراً في تقوية الإحساس بالأصالة والهوية الهندية. لا زالت حتى الآن الثياب التقليدية الهندية رجالية ونسائية سائدة لدى جميع الهنود بما فيهم النخب السياسية والمثقفة والغنية. هذا الموقف انعكس على جميع تفاصيل الهوية الهندية وخفف من حدة الانمساخ الحضاري والسياسي الذي عانوه خلال قرون الاحتلال البريطاني.

ليس صدفة أبداً أن جميع الحركات الإسلامية تصر على ارتداء الثياب التقليدية. إنها ردة فعل طبيعية على الاحتقار الذي مارسه «المتحضرون» ضد هذه الثياب (موضوع ثياب المرأة سنتطرق له لاحقاً).

قبل فترة تذكرت أن الحكومة في العراق منذ سنوات منعت قيادة السيارة لمرتدي الدشداشة. سألت الأصحاب إن كان منع الدشداشة يعود الى إعاقتها لحركة القدمين أثناء القيادة؟

لكن الجميع استغربوا تساؤلي عن قضية واضحة كالشمس:

ـ أخي فكر شوية، معقولة تسمح لواحد متخلف يلبس الدشداشة ثم يسوق السيارة. الله أكبر، يعني الواحد يتحضر شوية. السيارة مع الدشداشة!!

هكذا مسختنا تربية عقود الحداثة!

لا أحد ينكر أن أجيال الحداثة والتغيير بجميع تياراتها الفكرية والسياسية كثيراً ما كانت صادقة في نواياها، بل إن الكثير من الحداثيين قد كافحوا باخلاص وضحوا حتى بأرواحهم من أجل تطورنا الحضاري والإنساني. لكن مشكلة هذه التيارات أنها كانت مهووسة بالنموذج الغربي «اشتراكي أو رأسمالي» الى حد الاعتقاد بوضاعة وتخلف كل ما هو غير غربي.

منذ البداية فرضت حكوماتنا على الموظفين والعمال والطلاب خلع الثياب الوطنية وارتداء الثياب الأوروبية. حتى بعض المتدينين «المتنورين» ساهموا بحسن نية في هذه الحملة. قرأت مرة

أنه في سنوات الأربعينات أعلن مفتي سورية عن أسفه لاستمرار الناس في ارتداء «الثياب الدينية» أي الثياب الوطنية، مفتينا الطيب هذا كان يعتقد أنه لأمر سيء أن يتشابه بالثياب الناس العاديون مع المتدينين وأن تنعدم الفروق الشكلية بينهما. أي بصراحة، يا جماعة حلوا عنا كونوا أفندية واتركوا لنا الدين وثياب الدين.

هكذا إذن اكتملت المأساة، وتم الفصل التام بين الدين والدنيا، بين الماضي والحاضر، حتى بالثياب خلقنا عالمين نقيضين: عالم أهل الحداثة الأفندية ذوي البنطال والقميص والكرافات والقبعة والرأس المكشوف، وعالم أهل الدين والبساطة والتقليد و «التخلف» ذوي الشروال والجلابية والطاقية والعقال والعمامة!

أما بالنسبة الى ثياب المرأة فالمسألة أكثر تعقيداً وتحتاج الى قسم خاص بها.

أفخاذ تقدمية!

أتذكر في أواخر الستينات أنه انتشرت في بغداد بين النساء موضة الـ «ميني جوب». وهو الثوب القصير الى ما فوق الركبة. بالإضافة الى موضة البناطيل الضيقة التي تكشف عن ثنايا الجسد. حتى الشابات اللواتي حافظن على لبس العباءة السوداء اضطررن الى ارتداء هذه الثياب تحت العباءة. التعيس في الأمر أن المرأة التي غيرت مظهرها لم تغير سلوكها وعقليتها. ظلت كعادتها صعبة المنال متحفزة للرد بعنف على أي بادرة تحرش. تصوروا إذن حال الرجال في صيف بغداد حيث الحرارة عند الظهر تتجاوز الخمسين. الجميع يلهث من العطش والعرق النازف بينما الأفخاذ السمراء والبيضاء تتهادى تحت الشمس بشموخ وتوهج مثل حراب الجنود. بين حين وآخر يفاجئك مشهد اللحم البض يقدح من بين سواد العباءة كبرق في ليل دامس. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تطورت الأزياء نحو ما يسمى بالـ «ميكروجوب» حيث يكشف الثوب عن الأفخاذ كلها. صدقوني، إنه الجنون بعينه. لو تعرفون كيف كان حالنا نحن الشباب «التقدميون» كنا نعاني الأمرين: من ناحية يتوجب علينا احترام حرية المرأة وتحضرها و«خلاعتها الثورية»، ومن ناحية أخرى فإن أجسادنا وأرواحنا لا تكف عن العويل كلما واجهنا جبروت تلك الأفخاذ. كنا نخفف عن أنفسنا بالاعتقاد بأن الذنب ذنبنا نحن فحول الشرق المحرومين المكبوتين، بحيث تثيرنا رؤى مثل تلك «الأفخاذ التقدمية» وما علينا إلا تطوير أنفسنا وشعبنا «الطيب البسيط» لكي تصير مسألة الجنس ثانوية جداً، مثل أوربا!

الكثيرون في بغداد يتذكرون حادثة غريبة وطريفة جرت في أواخر السبعينات. كان بطلها وضحيتها إسكافي له دكان يقع في شارع الرشيد. كان هذا المسكين يمضي وقته في ترقيع الأحذية وتلميعها، بينما الأفخاذ الكريمة لا تكف عن المرور أمام دكانه؛ بل ما فتئت أعدادها تتفاقم كجراد ينهش في روحه. كلما رفع رأسه شعر بسكين الشهوة تنغرز في أعماقه فيخفض عينيه على الحذاء لاعناً الزمان والقدر. ذات ظهيرة رمضاء تفجرت دماء الغضب في عروقه بعد أن فقد الأمل تماماً في الإبقاء على صبره، وإذا بصاحبنا يمسك شاكوشه «مطرقته»، ثم يخرج «عضوه» ويضعه على السندان صارخاً به: «كل مشكلتي بسببك، لأقتلك قبل أن تقتلني»، ثم عاجله بضربة عصماء جعلته يفقد وعيه تماماً ويشرف على الموت لولا سيارة الإسعاف.

موضوع ملابس النساء إذن ليس ثانوياً كما يدعي الكثيرون، بل هو الآن بالذات يعتبر قضية أساسية في الصراع الدائر بين العلمانيين والمتدينين. منذ العشرينات تفجر الصراع حول قضية ثياب المرأة مع انطلاقة الدعوة الى السفور ورفض الحجاب والمطالبة بالمساواة القانونية والاجتماعية. مسألة ثياب المرأة منذ البدء وحتى الآن ظلت نقطة انطلاق أساسية في الصراع الفكري السياسي والاجتماعي بين دعاة الحداثة ودعاة السلفية.

طبعاً يتوجب علينا بهذه المناسبة التأكيد قبل كل شيء على حقيقة الوضع اللاإنساني للمرأة في مجتمعاتنا. لكن موضوع الثياب أمر يناقض مسألة مساواة المرأة لأنه يحولها الى موضوع جنسي لا أكثر.

مشكلتنا في الحقيقة أننا على جري العادة، اتخذنا من النموذج الغربي مثالاً مطلقاً للحلول الممكنة وانقسمنا حوله الى نقيضين: العلمانيون يدافعون عن وضع المرأة و«ثيابها» في المجتمع الغربي، والمتدينون يدينونه ويعتبرونه نموذجاً للفساد والتفسخ والتعري. من الطبيعي أن نختلف مع المتدينين الذين اعتبروا أي زينة أنثوية هي رجس من عمل الشيطان حتى خلطوا بين الطهارة والقبح. المرأة الطاهرة لدى المتدينين بالضرورة ان تصير قبيحة المنظر ومحجورة في كيس فضفاض وغطاء رأس خانق، في حمى عدائهم للنموذج الغربي تناسوا أن أمهاتنا خلال جميع قرون الإسلام وما قبل الإسلام وحتى الآن بقين يرتدين الثياب الوقورة والمقبولة دينياً دون التخلي عن التنويع والتزين بالألوان والحلي والوشم. لدينا ما لا يحصى من الأزياء الشعبية والتاريخية المتميزة بالأناقة والكفاية العملية والصحية ما يغنينا تماماً عن اللجوء لأكياس العفة هذه.

لكن رفضنا لهذا التحجر الديني لا يمنع من إدانتنا أيضاً للتحجر العلماني والغربي بتقديس عري المرأة! نختلف مع المتدينين في تقديسهم لحجاب المرأة وتقبيحها ثم نختلف كذلك مع العلمانيين بربط تحرر المرأة بمدى قدرتها على الإثارة وإظهار المفاتن. هناك فرق بين الجمال والإثارة، الجمال يخاطب المشاعر والعقل والقلب، أما الإثارة فتخاطب شيئاً آخر نعرفه جميعاً ونعاني من حرقته ليلاً ونهاراً.

مشكلة ثياب المرأة هذه ليست خاصة بمجتمعاتنا بل هي في صلب معاناة المجتمعات الغربية. يكفينا بعض التعمق وراء المظاهر السينمائية المفتعلة لنكتشف أن معاناة الرجل الغربي الجنسية والعاطفية لا تقل حدة عن معاناة الرجل في بلداننا. صحيح أن درجة الكبت أقل بكثير مما لدينا، وفرص العلاقة والإشباع متوفرة أكثر مما في بلداننا إلا أن هذا لا يمنع من بقاء المشكلة رغم اختلافها الشكلي وتلونها.

عـري لا يرحم

كم هي أسطورية تلك الفكرة السائدة لدينا عن الرجل الأوروبي المترفع عن شهوات الجسد. الحقيقة أنه لا يختلف كثيراً عن أي رجل في العالم: يكره ويعشق ويغار ويخجل، ويعيش مثل كل الرجال حيرة علاقته بالمرأة. رغم كل مظاهر التحرر والإباحية والمساواة بين الرجال والنساء إلا أن علاقة الرجل بالمرأة أعمق وأعقد بكثير من أن تحلها مظاهر الإباحية والمساواة المزيفة السائدة في الغرب. من معالم هذه المعضلة مثلاً استفحال ظواهر اجتماعية مرضية مع استفحال جنون العري والإثارة الذي راح يسود عالم المرأة وأزياءها: مشاكل تعرض النساء لأنواع المضايقات والتحرشات والابتزازات الجنسية، أي ما يسمى بـ «هوس الاستعراضية ـ I, Exhibitionisme» ويعني الممارسات الخليعة التي يقوم بها الرجال للتحرش بالنساء، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بالسجن لعدة أسابيع. ثم هناك أيضاً مشكلة «الابتزاز الجنسي – I, Harcelement Sexuel» أي استغلال الرجل لمنصبه لابتزاز المرأة الخاضعة لسلطته. هناك احصائيات نشرت في سويسرا تكشف عن نسبة 40٪ من العاملات والموظفات تعرضن لمثل هذا الابتزاز. أما مشكلة تكاثر حالات الاغتصاب فإنها تأتي في قمة معاناة المرأة. الرجل طبعاً هو المذنب في جميع هذه الحالات!

في الفترة الأخيرة ثمة أصوات حتى نسوية بدأت ترتفع متسائلة عن دور المرأة في تشجيع هذه المشاكل. إذا كان الرجل يمارس بعض الحركات ويظهر بعض المشاهد لكي يتحرش بالمرأة

ويجرح مشاعرها، فإن المرأة يكفيها ثيابها المصممة بأكثر الطرق دهاءً للتحرش بالرجل وإلهاب مشاعره!

إني طالما اندهشت من سر هذه الأسطورة السائدة بيننا عن الرجل الأوروبي المكتفي والشبعان! لمن إذن هذه المباغي وهذه المؤسسات الجبارة المتخصصة بعوالم الجنس والعلاقات السرية. هل هي فقط لرجالنا القادمين من الشرق؟ في كل مدينة أوروبية هناك المواخير وعلب الليل ومحلات الجنس وسينما الخلاعة وأفلام الفيديو والمجلات المتخصصة في مختلف عوالم الجنس والإثارة. بل في الأعوام الأخيرة بدأت تظهر الإبداعات العجيبة الغريبة من أجل تلبية حاجات الرجل المثارة والمعذبة: الهواتف الخلاعية بجميع أنواعها وألعاب الكمبيوتر الجنسية والبرامج التلفزيونية الخاصة وما لا يحصى من المؤسسات السرية والعلنية المتخصصة بأنواع الشذوذ والبغاء وإغراء النساء والشبان للدخول الى سوق الجنس.

مختصر الأمر، أن الرجل الأوروبي مع كل اختلافاته عنا فإنه من أجل إرضاء حاجته للمرأة يبقى خاضعاً للقانون الكوني الذي أنوجد منذ انبثاق المجتمع البشري: إما عن طريق العلاقة الشرعية العلنية القائمة على الديمومة والعواطف الثنائية المتبادلة مثل الزواج أوالصداقة الثابتة، وهذا هو السائد في أوربا؛ أو عن طريق العلاقات السرية العابرة باستخدام المال والمركز الاجتماعي (أي البغاء). في كل مكان وزمان ظل سائداً هذا القانون، لأن المرأة تظل محكومة بطبيعتها الفيزيولوجية التاريخية مهما اختلفت الظروف والحضارات: تعاني الحيض ومخاطر الحمل وتحذر من عضلات الرجل ونزواته الفحولية. منذ القدم تعودت المرأة أن لا تمنح نفسها إلا في حالتين: إما من أجل العواطف والحياة المشتركة وتحقيق حلم الأمومة، وأما (في حالات محدودة وحسب الظروف الاجتماعية) تمنح نفسها من أجل المال والمصالح. وهناك نسبة ضئيلة من النساء الباحثات عن المتعة فقط لكن معظمهن يمارس التجربة من أجل العثور يوماً على رجل الأحلام «لتعيش معه بثبات ونبات وتخلف له صبياناً وبنات»!

إذن، الرجل الأوروبي مثل جميع رجال الأرض يعاني من الكبت والإثارة والرغبة الممنوعة بالمرأة الأخرى. وعري المرأة وحركاتها وثيابها المثيرة تلهبه وتعذبه وتدفعه للجوء الى شتى الوسائل العلنية والسرية لإخماد الشهوة في جسده. ثم هل تعرفون أن «العادة السرية» منتشرة في فرنسا مثلاً بين أكثر من 80٪ من الشباب و 60٪ من الشابات، حسب جميع الاستكشافات والاحصاءات الصحافية!!

إن جزءاً كبيراً من إشكالية الرجل والمرأة في المجتمعات الغربية يكمن في اعتبار درجة تحرر المرأة تابعة لدرجة ممارستها للإثارة والتعري. هناك الكثير من مثقفي الغرب بدأوا يدركون أن ثمة تقديس متفاقم للعري والإثارة. إذا كانت المرأة في بلداننا شبه محجوبة وغائبة عن الحياة العلنية، فإنها في أوربا حاضرة بعريها الذي لا يرحم. إينما تلتفت تأتيك صفعات الإثارة من كل صوب: أفخاذ وأرداف ونهود تتلوى مثل الأفاعي في كل مكان، في الشوارع والباصات والمحلات وبوسترات الحيطان والصحف والأفلام. هوس أحمق لا يدل أبداً على الإشباع بقدر ما يدل على جنون الكبت وتفاقم اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة.

الأنكى من هذا أن ظاهرة الخلاعة والثياب المثيرة راحت تتفاقم مع تفاقم الخوف من مرض الإيدز. يبدو أن الخوف المتعاظم من هذا المرض حد كثيراً من حرية العلاقات الجنسية ودفع بقوة الميل نحو العلاقات الدائمة والمستقرة وتكوين العائلة والإخلاص المتبادل. لكن الأمر يبدو وكأن هناك قوى خفية تدفع الى بروز نوع من الانتقام الذاتي والتعذيب المتبادل: كلما تعاظم الخوف من الحرية الجنسية وتنامت ميول العلاقة الجدية، كلما تعاظم ميل المرأة الى الإثارة والتفنن بلبس الثياب الكفيلة بتسبب الأزمات القلبية وغير القلبية عند أطهر الرجال. الذي يستحق الملاحظة أن معظم مصممي أزياء النساء في أوربا هم من الرجال «المستأنثين أو المستخنثين». يُعتقد أن إصرارهم على إبداع الموضات النسائية المثيرة وتفضيل العارضات الخارقات الجمال والرشاقة والأنوثة، هو نوع من الانتقام من أندادهم الرجال «الطبيعيين».

يخطىء من يظن أن هذه الحالة هي من ضررورات الحداثة. ويخطىء من يعتقد أن هذا العري حالة طبيعية وأصيلة في أوربا. حتى أوائل هذا القرن كانت المرأة الأوروبية بصورة عامة ترتدي الثياب العريضة الطويلة التي لا تكشف إلا عن الأقدام والكفين والرأس. بل في القرى لا زالت المرأة مثل نظيرتها الشرقية تغطي شعرها. لا ندري كيف حصل الأمر وتحولت مسألة تحرر المرأة الى تحرر الجسد من وقار الثياب المريحة والجميلة. يمكننا الافتراض أن هذه الظاهرة نتاج عقلية نظام السوق والروح الاستهلاكية: كلنا يعرف قانون العرض والطلب في النظام الليبرالي. المسألة المهمة في هذا النظام هو مبدأ الدعاية وإثارة الرغبة بالطلب. إن الإشباع المعقول لا يجب أن يحدث أبداً، وإلا تكدست البضائع وهبطت الأسعار وكسد السوق. الإثارة الدعائية هي الكفيلة بتجديد الحاجة وإبقاء الزبون دائم التوتر واللهاث وراء المنتجات. بنوع من التبسيطية يمكننا تفسير سبب ارتفاع هذه الحمى في الغرب لتقديس عري المرأة وإثارتها. إن عقلية السوق والعرض والطلب لم تترك شيئاً في أوربا إلا وأصابته بعدواها بما في ذلك علاقة المرأة بالرجل.

حداثتهم

ذات أمسية، كنا مجموعة جالسين ندردش، فتطرقنا الى تجربة بلد عربي «ثوري». أراد أحدنا أن يذكر مثالاً على مدى تقدمية الحكومة ومدى تخلف الشعب:

ـ تصوروا أن هذه الحكومة شيدت العمارات، لكن الناس لتخلفهم أسكنوا الخرفان والمواشي معهم في الشقق حتى لتشاهد رؤوس الخرفان متدلية من الشرفات!

طيب، لنفترض ان هذه الحكاية صحيحة، فهل تصلح مثالاً على تخلف الشعب أم الحكومة؟ علماً أن مساحة ذلك البلد قد تعادل نصف مساحة أوربا الغربية وسكانها أقل من سكان مدريد. طيب هل كان من الضروري تقليد الحضارة الغربية وبناء العمارات. أما كان من المعقول بناء البيوت التي تحترم خصوصيات الناس وظروفها المعيشية. هل تربية المواشي دليل التخلف، وهل أوربا بلا فلاحين ولا رعاة؟ وصل بنا الأمر أن نحتقر جميع مظاهر الحياة التقليدية حتى الموجود منها في أوربا نفسها وكأن الغرب لا يقطنه غير العلماء والمثقفين ونجوم السينما!

حتى الآن لا زال الكثير منا يعتقد أن حليب نستله أفضل لأطفالنا من حليب الأمهات! وأن كثرة السيارات والآلات والعمارات دليل الحضارة والتقدم، تمشياً مع قطيعتنا التاريخية قمنا بعملية فصل قاسية بين الواقع والحاضر، بين موروث الماضي ومشروع المستقبل، حجزنا معظم تقاليدنا ومعتقداتنا في تابوت مقدس اخترعه لنا الأوروبيون اسمه «الفولكلور ـ التراث الشعبي» ثم قولبنا إبداعاتنا الحديثة حسب الذوق الغربي: الموسيقى والشعر والفن والثقافة، بل حتى أزيائنا الموروثة. باسم التطور والحداثة أهملنا كياننا الروحي والعقلي المجبول بخصوصيات آلاف الأعوام من التاريخ والجغرافيا والبيئة.

أما حداثة الأوروبيين فهي على عكس حداثتنا تماماً. كل شيء في حضارتهم الحديثة قد تأتى من تاريخهم وميراثهم: مأكلهم ومشربهم، ثقافتهم وفنونهم، أسماؤهم وألقابهم، وحتى ثيابهم. الأوروبيون لم يكتفوا بتبني تراثهم وإحيائه بل راحوا يدرسون تراث الشعوب الأخرى ويبدعون ويتخصصون فيه أكثر من أصحابه أنفسهم. حتى تاريخنا هم الذين كتبوه لنا. كشفوا لنا عن حضاراتنا القديمة وعلمونا لغاتها وبنوا لنا متاحفها وألفوا الكتب عنها وعلمونا دراستها في جامعاتهم. حتى تاريخنا الإسلامي تفننوا في كشفه لنا: الحلاج وثورة الزنج وابن خلدون ومواضيع لا تحصى قدمها لنا الأوروبيون. لو أراد أحدنا معرفة تاريخ أي

شيء عن بلدانا منذ فجر الخليقة وحتى الآن فإنه مضطر للاعتماد على المصادر المكتوبة بلغات أوروبية مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية! في أوربا أدركت قيمة حكايات ألف ليلة وليلة التي كنت استنكف من قراءتها بإعتبارها خزعبلات عتيقة. هنا عرفت أنها موجودة في كل مكتبة شخصية وعامة الى جانب الكتب المقدسة.

بسبب هذه الحداثة التي تحترم الأصالة الوطنية فإن المجتمعات الأوروبية عموماً لا تعاني من التناقضات العقلية الاجتماعية بالحدة ذاتها التي لدينا. أول ما يجلب الانتباه في المجتمعات الغربية قلة التمايزات الشكلية والعقلية والحضارية بين الطبقات والأجيال المختلفة. صحيح أننا نجد جميع الانقسامات المعروفة: مؤمن وملحد، ريفي ومديني، تقدمي ومحافظ، نساء ورجال، جيل قديم وجيل جديد، لكن تبقى التمايزات العقلية والحياتية بين هؤلاء أخف بكثير من التمايزات في مجتمعاتنا. عندما ننظر مثلاً الى الفروق المظهرية والحضارية بين جيلي الآباء والأبناء في أوربا فإن الفروق بينهما عموماً لا تتعدى الفروق بين سنوات عمريهما واختلاف الظروف التقنية والثقافية التي مرت عليهما. ترى الاب والابن، الام والبنت، متقاربين في الملبس والمأكل والمشرب والثقافة وتجارب السفر وارتياد أماكن الرياضة والتعلم والمتعة. أما عندما ننظر الى تنوعات مجتمعاتنا فإن الفروق الحياتية والشكلية والعقلية بين الفئات المختلفة قد تتعدى القرون: في الملبس والمأكل والمشرب والسفر والمعتقدات الفكرية والدينية ونمط الحياة المعيشية. بكل بساطة ليس هناك ما يجمع بين فئات مجتمعنا: الأبناء يختلفون تماماً عن الآباء. المتمدنون يختلفون تماماً عن الريفيين، العلمانيون يختلفون تماماً عن المتدينين، وهكذا دواليك.

لنتصفح مثلاً أي مجلة عربية اجتماعية فنية قد نجد فيها مقالة تشتم الغرب وفيها صفحة تراث ودين في الوقت نفسه نجد فيها كل ما هو نقيض تام لواقعنا. معظم الدعايات تظهر رجالاً ونساءً بسحنة وهيئة أوروبية تماماً حتى دعاية الصابون الوطني تحمل صورة رضيع أشقر بعيون خضراء وابتسامة غربية ساحرة. صفحات الأزياء عادة منقولة من صحف غربية، ومعظمها أزياء تعجز عن ارتدائها حتى المرأة الغربية. صفحة أخبار السينما العالمية تحدثك عن آخر صرعات السينما مع صور نجوم ونجمات فوق البشر. صفحة الغرائب مليئة بأخبار العجب عن المجتمعات الغربية. حتى صفحات أخبار الفن والسينما العربية تظهر لك نجوم ونجمات العرب بآخر الصرعات الغربية بسذاجة تستحق الرثاء. لا أحد يدري كيف حصل أن معظم نجماتنا شقراوات بيضاوات أكثر من الأوروبيات! تأتيك أخيراً صفحات

أخبار نخبة المجتمع. تشاهد صور حفلات الزواج والاستقبال تحمل من عجائب المظاهر ما يثير سخرية حتى الإنسان الغربي: النساء في آخر الموضات تشع من عيونهن أنوار الحضارة كحوريات الجنة، والكثيرات منهن بأسماء تقدمية جداً مثل: كارول وجوليا وزيزي وميمي. أما الرجال فتراهم يضحكون بخيلاء الديوك الرومية مخنوقين بالكرافات والجاكيتات الثقيلة وأحزمتهم تضغط بلا رحمة على كروشهم الفارهة. أما العرسان فترى واحدهم محجوزاً ببدلته السموكن وبجواره عروسته ترتدي فستان عرسها الأوروبي الذي تخلت عن لبسه الكثير من نساء الغرب(*).

أي متفحص للحياة العقلية الغربية يكتشف أن معظم الإبداعات التي نعتبرها رمز الحداثة والتقدم ما هي في الحقيقة إلا تراث وتقاليد شعبية غربية. خذ مثلاً «الموسيقى الكلاسيكية» رمز النخب الغربية المتميزة، ما هي إلا الموسيقى التراثية المثقفة، مثلما هي عندنا الموشحات الأندلسية أو المقامات العراقية. موسيقى البيتلز (الخنافس) التي انتشرت على أنها رمز الحداثة والتمرد ما هي إلا تطوير للموسيقى الشعبية الإنكَليزية. موسيقى الجاز الأميركية ما هي إلا تحديث لموسيقى الزنوج الموروثة عن أسلافهم الأفارقة. الثياب الحديثة من بنطال وقميص وسترة وقبعة ما هي إلا تطور طبيعي للثياب الأوربية المعروفة منذ قرون.

أتذكر مثالاً على مدى استخفاف نخبنا المتعلمة بتراثنا الوطني: تتحدث الباحثة الموسيقية العراقية شهرزاد حسن في كتابها «دور الآلات الموسيقية»، أنها منذ أعوام تقدمت بطلب الى وزارة الثقافة العراقية من أجل القيام بكشف وإحصاء للآلات الموسيقية الموجودة في العراق. حينها أجابها المسؤول ساخراً: «لماذا تتعبين نفسك وتكلفينا المصاريف، آلاتنا معروفة ولا تتعدى أربعة أو خمسة: مثل «الطبل والناي والعود والربابة». بعد إلحاح ومحاولات تمكنت هذه الباحثة من إقناع المسؤولين. أنجزت البحث بعد سنوات من التجوال في معظم قرى العراق ومدنه.. كانت النتيجة مدهشة: اكتشفت هذه الباحثة أن هناك أكثر من ستين آلة موسيقية بعضها موروث منذ زمن سومر وبابل وآشور ولا زالت مستعملة في طقوس الطوائف الدينية المتنوعة وكذلك في الحفلات الشعبية في المدن والقرى. اكتشفت كذلك مئات الألحان والأنغام الأصيلة والمجهولة تماماً من قبل أساتذة الموسيقى وفقهائها!

---

* يلاحظ ان المجتمع المغربي هو الوحيد من بين كل المجتمعات العربية الذي لا يزال فيه العرسان حتى في العوائل (الراقية) يرتدون الثياب الوطنية. ان ثياب العرائس خصوصا هي من اجمل الثياب التي يمكن ان تشاهدها العين.

إننـا في حمـى لهاثنـا وراء كنـوز الغـرب تناسـينا كنوزنـا الموروثـة منـذ فجـر التـاريخ. منـذ العشرينات رحنا نلهث لنجعل موسيقانا تستوعب النغمات والآلات الموسيقية الغربيـة. أدخلنا الأكورديون والكمان والإيقاع والبيـانو والغيتـار والأرغـن. والآن اجتاحنـا الجهـاز الألكتروني الجامع لكل الآلات والألحان!

نخبنـا المتحضرة اعتقـدت أن تطـور موسـيقانا سـيحدث عنـدما نـبني دور الأوبـرا ونـشكل «الأوركـسترا الـسمفونية الأوربيـة». ألم يكـن مـن المعقـول، أولاً الـتفكير مـثلاً بتكـوين المراكـز والفرق المتخصصة باستعادة الآلات والألحان الـتي كانـت سـائدة في حـضاراتنا القديمـة؟ ألـيس من المعقول أيضاً أن تشكل فرق تعزف لنا موسيقى جيراننـا في الحـضارة والجغرافيـة مثـل إيـران وتركيـا وافريقيـا، ثـم بعـد هـذا يمكننـا أيـضاً تـشكيل الفـرق الـسمفونية الغربيـة وحتـى بنـاء الأوبرات، لمَ لا ؟!

فنانونا ظلوا بأغلبيتهم الساحقة مغمضي الأعين عن تراثنا الموسيقي الفائق التنـوع والثراء، وحصروا فنهم في ألحـان مكـررة وآلات محـدودة معظمهـا غربيـة، بـل هـي محـدودة الاسـتعمال حتى في الغـرب. النـاظر الى الموسـيقى الغربيـة يلاحـظ أن لكـل فرقـة تخصـصها الموسـيقي ولهـا آلاتهـا الـتي تميزهـا عـن الآخـرين. لـو نعـد آلات الموسـيقى المـستخدمة في الفـرق الغربيـة بكـل أنواعها، لأحصينا ربما الآلاف من مختلف الآلات ومعها الألحان المختلفة. لم يتركوا آلة أو لحناً على وجه الأرض إلا واستخدموه وجعلوه جزءاً مـن موسـيقاهم. بفـضل زنـوج أميركـا تمكنـوا من تطويع الموسيقى الإفريقية وآلاتها لتكون جزءاً من تراث الغرب الموسيقي، بـل إن بعـضهم أدخل التراتيل الدينية في غنائه كما فعلت مادونا مع تراتيل فيروز، وكما فعل المغنّي الإنكليزي «كوين» مع ألحان عاشوراء واللطم وترديد الجموع.

❖ ❖ ❖

في حواري مع الغـربيين، تعلمـت تـذكيرهم بـأن لـيس كـل تقاليـدهم «تقدميـة» ولـيس كـل تقاليدنا «رجعية». خذوا مثلاً عادة استخدام اسم العائلة في الغرب. الشخص يحمل دائمـاً اسـم العائلة نفسه «أي العشيرة» الموروث منذ قرون الإقطاع، حتى الآن بصورة لا شعورية يـصيبني الانزعاج عندما ينـاديني أحـدهم باسـم عـائلتي كـدليل علـى الاحـترام : «مسيو ماتـار ـ سـيد مطر!». لماذا هذا الاحتقار لاسمي الشخصي، لماذا هذا الإصرار على تقديري مـن خـلال اسـم عائلتي؟! ثم الأنكى من هذا أنهم يجبرون الزوجة على إلغاء اسم عائلتها وحمـل اسـم عائلـة

زوجها. بل في سويسرا هناك ما هو أكثر غرابة وطرافة، أنهم في الوثائق الرسمية يفرضون على الزوجة أن تغير حتى مكان أصلها حسب مكان أصل الزوج. هذه هي التقدمية والحداثة!

احترام الذات من اجل احترام الآخر

أوّل شروط تحقيق العلاقة السوية مع الغرب أن نعترف بتمايزنا عنه. ليس من أجل العداء والخصام إنما بالعكس من أجل تجنب نظرتنا الأحادية إليه سلباً أو إيجاباً، وبالتالي تشوه علاقتنا بذواتنا الفردية والجماعية. إن اعترافنا بشخصيتنا وخصوصيتنا يؤدي الى الاعتراف بخصوصية الغرب وشخصيته المتميزة، وهذا وحده الكفيل بخلق علاقة مساواة وتبادل حضاري.

صحيح أن إشكالية علاقتنا بحضارة الغرب وحداثته أمر واقع فرضته سنة الحياة. أوربا ومكتشفاتها التقنية والعقلية دخلت فينا منذ قرون وصار من المستحيل رفضها أو تناسيها. بل حتى لو أننا قررنا يوماً على طريقة ألبانيا الشيوعية مثلاً قفل حدودنا وقطع علاقتنا بالغرب حتى لو رجعنا الى العصر الحجري. لكن المشكلة أن هذا غير ممكن أبداً، لأن أوربا لا تتركنا مهما فعلنا. هناك التاريخ والجوار والجغرافيا والاقتصاد والنفط خصوصاً.

كل هذا صحيح، أوربا والغرب أمر محتم علينا مهما شئنا. ولكن ألا يحق لنا أن نحلم بتخطي هذه الإشكالية الثنائية التي وضعنا أنفسنا فيها منذ أجيال: إما اعتبار الغرب هو الجنة الموعودة والنموذج الأمثل للتقليد والمقارنة كما يتصور العلمانيون، أو اعتبار هذا الغرب جهنم وبؤرة للفساد والتفسخ كما يتصور المتدينون.

إن تجاوز هذه الإشكالية يكمن في مدى قدرتنا على ابتداع (تيار وسط) يحترم الخصوصية الدينية والحضارية والشعبية، وفي الوقت نفسه ينفتح على علوم الغرب وتقنياته ومعارفه مع الحفاظ على نظرة نقدية إنسانية تميز بين عيوب الغرب ومحاسنه. لكي نتجنب هوس علاقتنا بالغرب، مقتاً أو عشقاً، ونقيم علاقات طبيعية معه من دون خضوع وانمساخ وتمزقات فردية وجماعية. إن لم نستطع أن نصنع الديموقراطية بصورتها المثلى، فعلى الأقل نحلم بخلق حالة من الاستقرار السياسي والسلام الاجتماعي والاعتدال الإقتصادي دون حروب أهلية ودولية وانمساخ علماني وديني وفقر مدقع وأزمات اقتصادية وحياتية مستمرة.

الفصل الأول

تجديد الهوية الفكرية

- من أجل فلسفة وسطية حديثة
- الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين
- حول المرأة والفلسفة الصينية (التاوية)
- نموذج للفهم العرقي والتغريبي

ثنائية التطرف والضياع...
وحتمية الفكر الوسطي الجديد

إن التطرف في الانقسام والتناحر بين تيارات الحداثة وتيارات المحافظة في العالم العربي يعود الى التطرف الحاصل في العقل العربي بأكمله. العنف السياسي والاجتماعي والتوترات والانقلابات والحروب الأهلية تعود أولاً الى التطرف العقلي الشامل لكل مفاهيم الحياة والمعتقد، وهذا التطرف يكمن أساساً في سوء الفهم الحاصل بتفسير «ثنائيات» الوجود وما تنتجه من تضاد متطرف في الرؤى الدينية والفكرية والاجتماعية.

إن إشكالية الثنائية هذه مسألة واقعية تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى ومنذ فجر التكوين العقلي للبشرية. جميع الأديان والفلسفات قد اعترفت بالثنائية لأنها أمر مكشوف وواقعي لا يمكن إنكاره. كل شيء في الكون له جانبان متعاكسان في المعنى والاتجاه : الليل والنهار، الحر والبرد، الأعلى والأسفل، الأنثى والذكر، النفس والجسد، العلم واللاهوت، وهكذا دواليك. واستناداً إلى هذه الثنائية شرع الإنسان بتكوين أسئلته الفكرية والدينية عن الكون والمجتمع. وتأخذ هذه الأسئلة أشكالاً مختلفة حسب الزمان والمكان رغم أن الجوهر يبقى متمحوراً حول المقارنة بين هذه الثنائيات. المعضلة الأساسية تكمن دوماً في كيفية التعامل مع ثنائيات الوجود هذه وعلاقاتها بـ «الثنائية التفاضلية الكبرى» عن الخير والشر، الأحسن والأسوأ، السعادة والتعاسة، وصولاً الى ثنائية الخالق الأعظم، المنقسمة الى الله خالق الحق والنور والخلود، ونقيضه الشيطان، خالق الباطل والخطيئة والظلام .

المشكلة تكمن إذن ليس في الاعتراف بالثنائية، بل في ميل الإنسان الى طرح هذه الثنائية بالمعنى التفاضلي. إذ يتم التطرف باعتبار الخير في طرف والشر في الطرف الآخر. وتجري المقارنة التفاضلية بين من هو الأحسن ومن هو الأسوأ: الليل أم النهار، الحر أم البرد، الأرض أم السماء، الدنيا أم الآخرة، الأنثى أم الذكر، الماضي أم المستقبل، المادة أم الروح، الجسد أم النفس، الدين أم العلم، الريف أم المدينة، ... الخ.

الحقيقة أن هذه الإشكالية الثنائية التفاضلية تعود الى إشكالية الانقسام الثنائي في طبيعة الإدراك عند الإنسان، ثم في طبيعة علاقاته مع الوجود. وهي تستند الى محورين متداخلين :

أولاً : محور ثنائية الإدراك: من المعروف أن للإنسان خمس حواس يدرك من خلالها الوجود ويشكل بواسطتها الوعي : النظر، الشم، السمع، اللمس، الذوق.. وعبر هذه القنوات يتحسس الانسان الكون ويبني علاقته مع ذاته ومع الآخر. جميع الموجودات التي يدركها الانسان بواسطة هذه الحواس، تسمى بالأشياء الواقعية المادية التي يثبت وجودها بصورة حسية واختبارية، ويمكنه كذلك أن يؤثر عليها عملياً من خلال الفعل اليدوي والتقني والعلمي. لكن المشكلة أن الانسان لا يدرك كل الوجود عبر هذه الحواس الخمس، بل ثمة قسم آخر يدركه الانسان من خلال «حواس» غير واضحة المعالم، لا جسمانية ولا مادية: الحدس والمشاعر والتفكير والتخيل. الأحلام مثلاً، تلعب دوراً مهماً في تفكير الانسان والتأثير عليه، رغم أنها مستقلة عن حواسه. كذلك الذاكرة والخيال والمشاعر والعواطف والحدس والاتصالات الروحية بين البشر جميعها تمارس تأثيراً. الحب والحقد والخوف والقلق والفرح والشهوة. أمور لا يمكن إدراكها حسياً، بالإضافة الى أن الكثير من ظواهر الطبيعة التي تتحكم بمصير البشر من الصعب تحديدها ولمسها بواسطة الحواس، مثل الموت والروح والطاقة والوعي ودورة الأفلاك وتطور الحياة وحركة بواطن المادة. أمور لا تحصى تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى، من الصعب عليه وضع تفسير واقعي حسي لنشاطها وتأثيرها. جميع هذه الأمور والظواهر غير المدركة بواسطة الحواس الخمس أطلق عليها الانسان: الجوانب الغيبية أو الروحية أو اللاهوتية.

الذي فاقم من حدة الإشكالات والتعقيد، أن هذه الجوانب «اللامادية» تتقاسم التأثير على الوجود بشكل متداخل تماماً مع الظواهر الحسية الواقعية: ظاهرة الجوع مثلاً حالة مادية محسوسة سببها مادي مكشوف هو نقص الطعام، لكن هذا الجوع يسبب أيضاً مشاعر الحزن والقلق والغضب والإنهاك وحتى الموت. العكس يحدث كذلك، خيالات الخوف والقلق قد تؤثر على الجسد وتؤدي الى الإجهاد والمرض. بهذا المعنى فإنه ثمة تداخل تناقضي ينشأ في رؤية الانسان لماهيات الوجود وتنفصم رؤية الانسان للموجودات الى ميلين متعارضين :

الميل الذي يعطي الأهمية للوجود اللاحسي الغيبي اللاهوتي. والميل الذي يعطي الأهمية للوجود المحسوس الواقعي والمادي. المطر مثلاً : شيء واقعي محسوس، لكن الانسان لم يدرك واقعياً كيف يأتي هذا المطر ولماذا يخضع لدورة المواسم، ثم ما سر قدرته على منح الحياة والخصب. كل هذه الأمور ظلت تدفع الإنسان الى الإيمان بوجود قوى خفية مسؤولة عن هذه الأمور.

ثانياً : محور ثنائية العلاقة بين الانسان والوجود: وهي ثنائية الخير والشر. الحقيقة أنه ليست ثمة خير ولا شر في الوجود لو لم يكن الانسان موجوداً. مفهوما الخير والشر خلقهما الانسان لتعريف علاقته هو بالموجودات الحسية والغيبية. الخير ما هو إلا تعبير عن الفائدة التي يجنيها الانسان من مظاهر الوجود : الصحة، الفرح، الشبع، الأمان، الولادة، الدفء، القوة...، الخ. كذلك الشر، ما هو إلا تعبير عن الأذى الذي يلحق بالانسان من مظاهر الوجود: المرض، الحزن، الجوع، الطوفان، الموت، البرد، التعب، ... الخ.

النار، قد تكون خيراً، ، لو استخدمها الانسان للدفء والطهي، وقد تكون شراً لو تسببت في حرق الانسان وممتلكاته. كذلك هو الحال بالنسبة لجميع الموجودات من الحيوان والطبيعة والكون.

هذا التداخل بين الثنائيات، بين الغيبي والمادي، ثم بين الخير والشر، كان الأساس لجميع الأسئلة الفكرية التي شرع البشر بتشكيلها منذ فجر الحضارة: في أي طرف من ثنائيات الوجود والإدراك يكمن الخير، وفي أيهما يكمن الشر؟ أيهما يمثل الله والسعادة والخلود، وأيهما يمثل الشيطان والتعاسة والفناء؟

على هذا الأساس تداخلت ثنائيات الرؤيا والمعتقد وتمحورت حول استفهامين متداخلين :

❖ لمن الأولوية.. اللعوامل المحسوسة القابلة للتعامل الجسدي المباشر من قبل الانسان؟ أم للعوامل الغيبية التي لا يستطيع أن يتعامل معها الانسان إلا من خلال الطقوس الروحية والدينية والرمزية؟

❖ ثم في أي من ثنائيات الوجود يكمن الخير، وفي أيها يكمن الشر؟ أفي الجسد أم في الروح؟ أفي الظلام أم في النور؟ أفي الذكورة أم في الأنوثة؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟ أخذت الأسئلة تتعمق وتتعقد كلما حصل الإنسان على أجوبة.

هكذا شرع الانسان يصوغ أسئلته ويعمل فكره ويبحث عن أفضل الحلول التي تعينه على الوصول الى الخير وتفادي الشر. منذ الانسان الأول تمحورت الانقسامات المعتقدية حول طرفي الثنائية، وانقسم الناس عموماً الى ميلين متناقضين :

ـ الميل الغيبي اللاهوتي، الذي يعطي الأولوية للعوامل الغيبية والإلهية والقوى الخفية. أي الاعتقاد أن الخير والشر يكمنان في مظاهر الوجود المستقلة عن الإدراك الحسي

المباشر للانسان، وبالتالي فإن التعامل الديني والايماني يتم مع هذه المظاهر من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر. هكذا نشأت الأساطير والأديان وطقوس العبادة وجميع مظاهر الخضوع للقوى الغيبية المتحكمة بحياة الانسان والطبيعة.

- الميل الواقعي الحسي الذي يعطي الأولوية للعوامل المحسوسة الأرضية والارادة البشرية والتقنية. أي أنه على الانسان الاعتماد أساساً على المظاهر الحسية العلمية والتقنية من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر. وهكذا قام الانسان بصنع أدواته وتقنياته واكتشف الأسلحة والأعشاب الطبية وطور العلوم المختبرية والوسائل المادية للسيطرة على الطبيعة وخلق الخير وتفادي الشر.

تاريخ الانقسام الفكري

تاريخ التنافس والتعايش بين هذين الميلين هو تاريخ العقل البشري وتطور الحضارة منذ فجر التاريخ وحتى الآن. يبدو أن تاريخ البشرية قابل للتشبيه والمقارنة مع تاريخ الفرد الانساني. على هذا الأساس يمكن الافتراض أن الولادة «الحضارية والعقلية» للبشرية قد حدثت مع نشوء أول معالم التعقل: الاستقرار والتدجين والزراعة واللغة والكتابة والبناء وخلق الأساطير والأديان والأفكار والدول. إذا كان الفرد يمر في حياته بعدة مراحل، فإن البشرية قد مرت بمرحلتين مختلفتين متكاملتين من الطفولة ثم المراهقة:

1 ـ **مرحلة الطفولة الحضارية**: حيث الانسان لم يزل حديث الخروج من رحم الطبيعة الأم وقريباً من عالمه الأولي «الحيواني». علاقة الانسان مع البيئة لم تزل وطيدة ولم تؤثر عليها بعد المكتشفات التقنية والحضارية. الايمان في هذا الطور ظلَّ مركزاً على قوى الطبيعة الغيبية «الخيرة» و «الشريرة»، من مطر وعواصف وحيوانات ونجوم ونباتات وتحولات المواسم.

مع نمو الحضارة وتقنياتها ومكتشفاتها يبدأ الانسان تدريجياً بالتحرر من مؤثرات الطبيعة. تركيز السلطة السياسية وتوسع الدولة وهيمنة الملوك يدفع بالانسان الى تركيز القوى الغيبية والبحث عن الرموز الكبرى التي تمثل بشكل غير مباشر مجاميع ظواهر الطبيعة. بالتدريج يختصر الايمان الى بضعة آلهة كل منها يمثل مجموعة معينة من قوى الوجود: إله الخصب، وإلهة الجمال، وإلهة الموت، وغيرها.

مع الاستمرار في هذا الطور بدأ ميل الانسان الى إيجاد إله واحد موحد لجميع الآلهة، كما تجلى فيما بعد بظهور الأديان الشمولية والتوحيدية مثل اليهودية والزرادشتية والبوذية والهندوسية. في هذا الطور اختصرت الثنائية الى أبسط حالاتها: قوة الخير المتمثلة بالإله الجليل المتحكم الأكبر بالانسان والكون، وقد يكون اسمه الله أو النيرفانا أو النور أو المطلق. أما قوة الشر فتتمثل بالشيطان والظلام والفناء الأبدي، تلك القوة الجبارة التي تنافس قوة الخير لتدفع بالانسان والكون الى الخطيئة والدمار.

لكن هيمنة هذا الميل الغيبي لم يمنع الانسان من النشاط في التعامل مع الموجودات الحسية. ان الطقوس والنذور والمعابد لم تكن قادرة وحدها على توفير الخير والأمان والراحة للإنسان ومكافحة الشر والقلق والمرض. متطلبات الحياة ظلت تفرض على الانسان التعامل أيضاً مع المحسوسات، وبالتالي تطوير المعارف المتعلقة بالميل الواقعي المادي. لذلك قامت الحضارات أيضاً بتطوير التقنيات والأسلحة والمعارف العلمية والبحث الدائم للكشف عن أسرار الكون والطبيعة والسيطرة عليها لكسب الخير وتجنب الشر.

كلما تقدمت البشرية في معارفها واكتشافاتها وقدراتها على السيطرة، كلما اشتد الميل الى الاعتراف بالعلوم والعوامل المختبرية المحسوسة والتقليل من أهمية الجوانب الروحية الغيبية. جميع الحضارات ساهمت بالتقدم أكثر في هذا الطريق من خلال تطوير العلوم الفلكية والتقنية والحربية والطبية والهندسية.

بما أن الفرد لا يترك فجأة مرحلة الطفولة قفزاً نحو مرحلة المراهقة، بل يتدرج ببطء باكتشاف الحياة والنمو الجسدي والمعرفي؛ كذلك البشرية قد احتاجت عدة آلاف من السنين في مرحلة الانتقال والنمو المعرفي نحو الأمور الواقعية الحسية والعقلية. أبرز الخطوات «التنظيرية» الواضحة لهذا الميل العقلي تمثلت ببروز المنطق والفلسفة والبحث عن العوامل الواقعية والمحسوسة في تفسير وتحليل ظواهر الوجود الانساني والكوني. ابتداءاً من الألف الأول قبل الميلاد شرعت البشرية بتطوير علوم المنطق والفلسفة وخصوصاً بين شعوب البحر المتوسط إغريق وشرقيين وبالاعتماد على ميراث جميع الحضارات البشرية. رغم النمو المتتالي لهذا الميل «العلمي» فانه ظل خاضعاً للميل الروحي الديني حيث ظلت السيطرة الفعلية (السياسية والعقلية) للأديان والمعتقدات اللاهوتية.

2 ـ **مرحلة المراهقة العلمية** : يمكن القول أنه منذ القرن الخامس عشر وبدء عصر النهضة في أوربا الغربية، شرعت البشرية ببلوغ المرحلة التي يمكن أن نطلق عليها «مرحلة المراهقة العلمية». مع انطلاقة الثورة العلمية والصناعية فرض الميل الحسي المختبري هيمنته الكاسحة على أوربا أولاً، ثم بالتدريج على باقي أجزاء العالم مع تسارع وتيرة التقدم المادي طغت الرؤية العلمية المضادة للتيار المهيمن السابق الروحي اللاهوتي.

وكما في المرحلة السابقة حيث لم يستطع الميل الغيبي رغم سيطرته أن يلغي تماماً الميل المادي؛ كذلك في هذه المرحلة فان سيطرة الميل المادي لم تستطع ان تلغي الميل الغيبي. في هذه المرحلة اشتد الصراع بين الميلين واتخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً متطرفاً حتى سيطر الميل العلمي تماماً سياسياً وعقلياً من خلال ما يسمى بالثورة العلمانية، حيث تم عزل الدين والروحانيات من إدارة الدولة والمجتمع.

كما يحدث للانسان في مرحلة المراهقة من تمرد مطلق على الماضي العائلي والموروث الاجتماعي، فان البشرية كذلك تمردت تماماً على ماضيها الروحي وهجمت بعنف ووحشية على انتمائها «الطبيعي»، وراحت تعمل بلا هوادة على تدمير الحياة الحيوانية والبيئية وتقديس العلوم والتكنولوجيا ومنتجات الحياة المادية.

إن قرون الثورة الصناعية وعصر الأنوار واحتدام الصراعات السياسية الاجتماعية بين أنصار الحديث وأنصار القديم أضفت بعداً سياسياً للصراع بين هذين الميلين. وهذا الأمر دفع المفكرين لابتداع أساس فلسفي ـ ديني للصراع المحتدم بين المالكين الحكام من جهة، والمنتجين المحكومين من جهة ثانية : الحكام مع الدين والكنيسة والروح والقوى الغيبية، إذن فالمحكومون هم مع العلم والمادة والإلحاد وقوى الانسان المنتجة!

هذا يعني النفخ المفتعل في السؤال الفلسفي التالي : لمن الأسبقية... للمادة أم للروح.. للدين أم للعلم.. الارادة البشرية أم المشيئة الالهية؟

لقد ضخم الغربيون هذا السؤال وهولوه حتى جعلوا منه المدخل لكل سؤال فلسفي، بل صار الدليل للحكم على أي موقف اجتماعي وأخلاقي وسياسي: المثالي المتدين الروحي المؤمن بأسبقية الروح والله، هو اليميني الرجعي الإقطاعي والمالك المعادي للعلم والحداثة والتقدم.. المادي المعتقد بأسبقية المادة والطبيعة، هو العلماني اليساري الديمقراطي الملحد المكافح من أجل التقدم والحداثة والرخاء!

طبعاً إن سيطرة هذا الانقسام لم يمنع التداخل والتردد بين الميلين، ومحاولة بعض المفكرين الجمع بينهما. لكن تطور الثورة العلمية والتناحر السياسي برر أكثر فأكثر الاصرار على وجود تناحر بين ما يسمى بالمادي وما يسمى بالروحي. إذ تم فرض سؤال جديد في الفكر الانساني لم يسبق طرحه بمثل هذه التناحرية المتطرفة: «أيهما أسبق المادة أم الروح.. الظروف المادية هي التي تحكم التاريخ أم هي الروح المطلقة والمشيئة الإلهية من يقود التاريخ...؟». راحوا يقسمون بعشوائية وتعسفية مسميات الوجود الى عوامل مادية وعوامل روحية. مثلما تفتش في الماء عما هو ثلج وعما هو بخار!

النظرية الماركسية والتجربة الشيوعية تعبير عن ذروة طيش الأحلام البشرية المراهقة للانسلاخ التام من الماضي الروحي والطبيعة الأم، من أجل إعادة إحياء الانسان لـ «جنته» الحنونة المفقودة من خلال السيادة المطلقة للعلم والتكنولوجيا والقوى المادية المنتجة. ماركس نموذج لمعظم المفكرين الثوريين في تلك الحقبة. خلط بين الدين كروح وأخلاق وحاجة طبيعية والدين كاستخدام آيديولوجي من قبل الحكومات والقيادات الفقهية والاجتماعية. حدة الصراع الاجتماعي السياسي أدت بماركس مثل معظم أبناء زمانه الى التطرف في رؤية ثنائية الوجود. اعتبر ماركس «الدين أفيون الشعوب». بدل من رفض تشويه الحكام للدين تم رفض الدين بأكمله ورفض كل ما هو روحي ومجهول وغير حسي في الانسان والكون. كان من المعقول القول بأن: «دين الحكام والمالكين هو أفيون الشعوب»، وعلى المضطهدين أن يحرروا دينهم ومعيشتهم وحياتهم بجميع تفاصيلها من استغلال وتشويه المالكين. الدين إحساس روحي شامل لجميع البشر وحاجة فطرية للايمان بقوة مطلقة تربط بين وجود الانسان كفرد مع باقي الأفراد والجماعات البشرية والكون بأجمعه. إن رفض الدين يوازي رفض باقي مكونات الروح الانسانية. ماركس نفسه يعترف أن الطبقات المالكة لا تتحكم بالاقتصاد والحياة المادية فقط، بل هي تفرض سيطرتها المادية من خلال فرضها لآيديولوجيتها على عقلية المجتمع وتحكمها بالانتاج الروحي: الدين والفن والأخلاق والثقافة والتقاليد جميع هذه المكونات العقلية يمتلكها الأسياد ويتمتعون بها ويمارسون من خلالها سيطرتهم وتبرير وجودهم.. إذن في هذه الحالة يحق القول: «الدين... وجميع مكونات الروح الانسانية، هي أفيون الشعوب...». وهذا بالضبط الذي حدث فيما بعد عند محاولة تطبيق الماركسية بشكلها الستاليني التبسيطي، ثم ساد هذا الفهم في العالم العربي والعالم الثالث.

جميع شعوب الأرض قد شاركت في خطيئة التطرف الثنائي هذه، لكنها جميعها كذلك ساهمت في البحث عن الدرب الانسجامي الوسط بين الثنائيات. ثمة شعوب كانت أنضج من غيرها في الاقتراب أكثر ناحية الرؤية الانسجامية هذه. ليس هناك أعراق أفضل من أعراق، بل هناك أعراق هيأتها ظروف الطبيعة والتاريخ والجغرافيا لأن تكون في مقدمة المسيرة الحضارية. التاريخ يكشف أن شعوبنا كانت أقرب الشعوب الى الميل الوسط. شعوب الضفة الشرقية للبحر المتوسط من (العالم العربي)، هي الرائدة دائماً في صنع المشاريع الانسانية الكبرى. الجغرافية والطبيعة والتاريخ حتمت على هذه الشعوب أن تكون دائماً في مركز العالم روحياً ومادياً. ليس صدفة أبداً أن تنبثق في هذه الأوطان أولى الحضارات والثقافات والأديان الكبرى، لأنها متوسطة في كل شيء. جغرافياً هي في وسط قارات العالم، بين آسيا وافريقيا وأوربا. وهي في الوسط تماماً بين الشرق والغرب.. هم شرقيون إزاء الغربيين، لكنهم غربيون إزاء الشرقيين في آسيا. حتى المناخ هو مناخ المنطقة المعتدلة. أما الطبيعة فهي نموذج لتكامل الثنائيات، جفاف الصحارى الكبرى، وسيولة الأنهار والينابيع والبحار والوديان الخصبة.

العلماء الغربيون الذين فرضوا منظورهم التاريخي الذاتي على العالم نجحوا بإقناع العرب بأن تاريخهم العقلي قائم على الأسطورة والدين والروحانيات، وأن حضاراتهم الفرعونية والعراقية والشامية وعموم الحضارة العربية الاسلامية لم تبدع إلا في هذا المجال. وأن المنطق والفلسفة والعقل العلمي والتجريبي هي خصال أوروبية أبدعها الإغريق والرومان وطورها الغربيون. علماء الغرب هؤلاء لم يشاهدوا من الميراث العقلي للمنطقة العربية غير جوانبه الأسطورية الروحية، أما الجوانب المنطقية والعلمية فإما لم يشاهدوها أو أنهم نسبوا إبداعها الى الإغريق والرومان وأوربا.

التاريخ يبرهن بشكل جلي على أن العقلية (الشرقمتوسطية) (السامية الحامية ــ العربية)(*)، أبدعت دائماً في المجالات العلمية والمنطقية، مثلما أبدعت في المجالات الدينية والروحية. يكفي النظر الى الانجازات الكبرى في مجالات الفلك والحساب واللغات والهندسة وبناء الدول والجيوش ومشاريع الري وعلوم الفلك والجغرافية ووسائل النقل

* إننا مع الفكرة القائلة بأن العوائل اللغوية (سامية ، حامية ، آرية — ألخ ..) هي ليست عوائل عرقية بل وحدات لغوية تضم مختلف الاعراق والشعوب التي لمختلف الأسباب، تبنت لغات متشابهة .

والإبحار. الناظر الى تاريخ اللغة والكتابة يكتشف أن هذه الحضارات هي أول من طور علم اللغات والأبجديات، من المرحلة الصورية البسيطة المماثلة للطبيعة (الهيروغليفية في بلاد النيل والمسمارية في العراق الألف الرابع قبل الميلاد)، وصولاً الى المرحلة المنطقية الشاملة المتمثلة باختراع نظام الأبجدية (السينائية الفينقية) في الألف الأول قبل الميلاد. إن اختراع الأبجدية كان من أكبر الثورات (الفلسفية المنطقية) في العقل البشري. ويمكن الجزم أنه بدون هذه الثورة لا يمكن تصور إمكانية نشوء علوم المنطق والفلسفة لدى شعوب البحر المتوسط فيما بعد. في القرن الثالث قبل الميلاد برزت مساهمة العالم الشرقي بصورة مباشرة في تطوير الميل الفكري العقلي (الفلسفة والمنطق)، إذ نافست مراكز الفلسفة الشرقمتوسطية مثيلاتها في اليونان وإيطاليا: الاسكندرية في مصر وأنطاكيا وبيروت في الشام والرها ونصيبين في بلاد النهرين.

أما الإسلام، فهو بحقيقته نموذج مختصر للعقل الشرقمتوسطي. تاريخ الفكر العربي الاسلامي يمنح أمثلة كثيرة عن مدى تداخل الميول الفكرية المتناقضة، في ظل حضارة تواقة الى التكامل بين الثنائيات. الاسلام بحد ذاته لم يشتمل على اللاهوت والروحانيات فقط، بل اشتمل أيضاً على جوانب الحياة المادية الواقعية والمحسوسة. انه دين الروح: الله والجنة والنار والملائكة والأنبياء والصلاة والصوم والحج، لكنه أيضاً هو دين المادة والتجارة والجنس والمجتمع والدولة وتقسيم الثروات وتفاصيل الحياة اليومية.

ان سر عظمة الحضارة العربية الاسلامية يكمن في قدرتها على استيعاب جميع الإبداعات العلمية والمادية. رغم هيمنة الميل الديني الروحي سياسياً واجتماعياً، طبيعة الاسلام هذه منحت المجال الكبير لتنوع الإبداعات العقلية الى حد يفوق التصور. كان يكفي للمبدع أن لا ينتقد الاسلام (والخليفة) مباشرة وينتبه الى ذكر اسم الله في كتاباته حتى يمتلك الحرية المطلقة في ولوج مجالات التفكير والتعبير مهما كانت. مثال على هذا تلك الحرية التي كان يتمتع بها العلماء والفلاسفة العقلانيون من أمثال الكندي وابن رشد وابن خلدون رغم تناقضهم (الفكري) مع الاسلام السائد. لأنهم رغم عقلانيتهم وعلميتهم، كانوا كذلك من المؤمنين بالله والمكررين لأسمه في تحليلاتهم وكتاباتهم. وبالعكس لدينا مثال (الحلاج) وبعض المتصوفة والثوار الذين صلبوا وأحرقوا رغم إيمانهم الحقيقي بالإسلام وتصوفهم وزهدهم وصلواتهم التي لا تنقطع، كل هذا لم يشفع لهم لأنهم «لم يحسنوا» استخدام الكلمات في تعبيرهم عن

روحانيتهم هذه، إذ تطرقوا مباشرة الى التشكيك بالمعنى الرسمي لمفهوم (الله) وكذلك سلطة الخليفة، فكان من السهل اتهامهم بالزندقة.

إن مشكلة العقل العربي في العصر الحديث تكمن في عجزه عن إدراك حقيقة ميراثه (الاسلامي وما قبلاسلامي(*)) المتضمن جميع العناصر الروحية والعلمية التي تساعد على صنع تيار وسطي حقيقي يجمع بانسجام بين ثنائيات الوجود.

يمكن تحديد نقاط القوة في الحضارة العربية الاسلامية بالنواحي الثلاث التالية :

أولاً : حرية تفاعل التيارات المختلفة: إن سر عظمة أي حضارة يكمن في قدرتها على منح حرية التعبير والتفاعل لجميع التيارات العقلية في المجتمع. صحيح أن الميل الديني اللاهوتي هو الذي كان يمتلك زمام السيطرة على جميع مناحي الحياة العقلية في ظل الاسلام، إلا أن هذا الأمر لم يمنع من إعطاء مساحة واسعة من الحرية للميول العلمية والمنطقية. الدليل على هذا أنه في ظل الحضارة العربية الاسلامية ظلت تتفاعل بصورة مبدعة ثلاثة تيارات مختلفة في ظل وضع جدالي أقرب ما يكون الى الوضع الليبرالي السائد حالياً في الغرب :

- **التيار الديني السلفي** : ويطلق عليه أيضاً (تيار النقل) و (أهل السنة والحديث) و(أهل الإيمان)، ومن أبرز ممثليه (الحنبلية). وهذا التيار كان له حضوره في جميع الطوائف والمذاهب منذ نشأة الاسلام. وهو عموماً التيار المهيمن سياسياً الذي يرفض استعمال المنطق والفلسفة ويدعو الى الإيمان المباشر بالله والأنبياء والأئمة دون طرح أسئلة أو بحث عن براهين واقعية لتحليل وتفسير هذا الإيمان. الامام الغزالي من أقوى المدافعين عن هذا التيار رغم أنه لجأ الى المنطق والفلسفة لدحض ومقارعة أصحاب التيار العقلي.

  ويعتبر كتابه (تهافت الفلاسفة) الحجة التنظيرية الكبرى التي ساعدت على السيادة المطلقة لهذا التيار ولتبرير موت التيارات المنافسة الأخرى.

- **تيار الفلاسفة** : ويطلق عليه أيضاً (تيار العقل والبرهان) و (المتكلمة) وهو التيار الذي أخذ بعلم المنطق والفلسفة والبرهان، ومن أبرز رموزه الكندي والفارابي وابن رشد وابن خلدون. رغم أن هؤلاء الفلاسفة ظلوا على ادعائهم الأولي بالإيمان الديني والمشيئة الإلهية، إلا أنهم في التفاصيل كانوا يعتمدون على العلم والمنطق في رؤية

---

* ماقبلاسلامي : نحتت من كلمتي (ماقبل اسلامي) .

الواقع وتحليل الجوانب التاريخية والعقلية. صحيح أن هذا التيار كان يعتبر متطرفاً بنظر الغالبية من المتعلمين وغير المتعلمين، وتعرض أصحابه الى المضايقة والقمع، إلا أنه كان يتمتع بمساحة كافية من حرية التعبير والتأثير على العقل الديني السائد.

- **التيار الوسطي** : بالحقيقة أن هذا التيار كان موزعاً بين ميول عديدة مترددة بين تياري العقل الإيماني والعقل البرهاني. وتظل الصفة الجامعة بين أقسام هذا التيار هي الرغبة بمزج العقل مع الايمان. وأول بوادر هذا التيار عبر عنها (المعتزلة) وتطور فيما بعد على يد (اخوان الصفا). كذلك حاول الإمام الأشعري أن يكون مذهباً وسطياً يجمع بين الناحيتين. ويمكن اعتبار المتصوفة أكثر الذين جمعوا بصورة خاصة بين تطرف المنطق الفلسفي وتطرف الايمان الروحي، واعتمدوا بذلك على المذاهب القديمة التي صنعتها الشعوب الشرقمتوسطية أسلاف العرب، مثل المسيحية والمانوية البابلية والهرمزية المصرية والاسم الذي ساد عن هذه التيارات هو العرفانية(*).

وبرز كذلك فلاسفة جمعوا بين الفلسفة والإيمان مثل ابن سينا وابن عربي. لكن مشكلة هذا التيار الوسطي أنه ظل مهمشاً بسبب عدم قدرته على خلق نظرية واضحة منسجمة تجمع بين ثنائيات الوجود المادي والروحي. ويمكن الافتراض أن نقطة الضعف هذه تعود أساساً الى طبيعة المرحلة الحضارية آنذاك التي لم تهيىء الظروف لخلق مثل هذا التيار. ربما لو أن الحضارة العربية الاسلامية ظلت مستمرة بتطورها الطبيعي لتهيأت أسباب نجاح هذا التيار وهيمنته فيما بعد.

ثانياً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب ميراث الشعوب الشرقمتوسطية التي تعربت وأسلمت بمعظمها وانصهرت عرقياً وحضارياً في الحضارة الجديدة. والذي منح الاسلام هذه القدرة على الاستيعاب، أن العرب كانوا من ذات الحضارة والثقافة السامية الحامية التي عمرت المنطقة منذ آلاف الأعوام، ثم ان الاسلام اعتبر نفسه متمماً للأديان والمعتقدات التي صنعها الأسلاف. تاريخ الحضارة العربية الاسلامية يكشف عن مدى اشتراك العناصر المسيحية واليهودية والهرمزية والمانوية في ضخ الاسلام بمعارفها الموروثة. اللغة العربية طورت نفسها وكونت نحوها المنطقي من خلال تجربة اللغة السريانية. علوم

* العرفانية (الغنوصية) : هي تيارات فكرية دينية أنشرت في مصر والشام والعراق قبل الميلاد بقليل، وهي تجمع بين الأيمان الروحاني التصوفي والمنطق الفلسفي، وكانت أمتداداتها في الأسلام متمثلة في الاشراقية والتصوف.

الفلك والتنجيم والكيمياء ورثت وطورت علوم حضارات العراق ومصر والشام. المنطق والفلسفة العربية الاسلامية استوعبت أساساً ميراث الشعوب السالفة.

ثالثاً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب معارف الشعوب الأخرى غير الشرقمتوسطية التي دخلت الاسلام وساهمت بتشييد الحضارة وتبنت اللغة العربية في إبداعها الثقافي. الشعوب الايرانية والتركية والهندية قد رفدت الفكر الاسلامي بميراثها المجوسي والهندوسي والآسيوي التركستاني. من هذه الشعوب برزت أسماء كبرى مثل ابن سينا والفارابي والغزالي وغيرهم. ولم ينحصر انفتاح الحضارة العربية الاسلامية على الشعوب المسلمة، بل كذلك الشعوب المجاورة التي ظلت مستقلة عن الاسلام، مثل الهندوس والصينيين واليونانيين والرومان من خلال الترجمة والاقتباس والمقارنة. مثال حكايات ألف ليلة وليلة برهان على هذه الناحية، حيث بدأت فكرة هذه الحكاية في الهند ثم طورها قليلاً الفرس والأتراك ثم تلقفها العراقيون لتأخذ شكلها الفني العميق في بغداد ولتصبح تامة التكوين في مصر.

عصر انبثاق فكر وسطي جديد

ربما يصح الافتراض أو على الأقل التمني، أن البشرية احتاجت لبضعة آلاف من الأعوام لتنهي «مرحلة الطفولة الغيبية»، لكنها لم تحتج إلا لبضعة قرون لكي تبدأ بالتخلص من «مرحلة المراهقة العلمية»!

تجارب التاريخ تثبت أن التطرف في واحد من الميلين الغيبي أو العلمي، يؤدي حتماً الى اختلال التوازن في البنية العقلية الاجتماعية. تارة باسم اللاهوت والدين والمثل السماوية، وتارة باسم العقل والعلم والواقعية، وفي كلتي الحالتين ظلت البشرية تخوض الحرب وتشن الغزوات وتبرر الاستعباد وتمجد التضحيات ولا تكف عن تبديد ثروات الطبيعة والانسان.

كوارث الحربين العالميتين الأولى والثانية ربما هي آخر الزفرات الكبرى لطيش المراهقة الغربية والبشرية عموماً. ليس صدفة أنه في الغرب خصوصاً قد شرعت الانسانية بإدراك مدى هشاشة الثورة العلمية والعقلانية التي كان يعتقد بقدرتها المطلقة على الخلاص وخلق الجنة «التكنولوجية الرأسمالية أو الشيوعية» على الأرض. بدأ هذا الغرب يراجع بصورة بطيئة جميع طروحات «المراهقة» المتطرفة عن العلم ونفي ميراث البشرية الروحاني.

الحقبة العالمية الحالية تمثل حالة مخاض لانبثاق حضارة انسانية جديدة مبدؤها الاعتدال والوسطية والنسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود. مع نمو التجارب والنضوج العقلي يبدأ الانسان فرداً وجماعة بالميل نحو التوازن في رؤية الموجودات وتفضيل الوسطية لايجاد الحلول. هكذا بدأت البشرية الآن بالتخلص من طيش «المراهقة العلمية»، لتبلغ عمراً جديداً من الشباب الناضج، مستفيدة كذلك من ميراث «الطفولة الروحية»، لكي تشق درباً وسطياً يجمع بين العلم والروح، بلا تطرف ولا تبسيط.

تتجلى حالة البحث هذه عن الوسطية بأوضح أشكالها في الناحية الفكرية السياسية. هذا النزوع الوسطي يفسر بروز الجماعات البيئوية والسلمية المنفتحة على العلوم الحديثة من ناحية، وروحانيات الشعوب وميراث أديان أوربا والعالم. كذلك البحث عن نظام وسطي بين الاشتراكية والليبرالية قائم على الحياة التعاونية السلمية واحترام الأديان وتقاليد الشعوب وبساطة الحياة المحدثة. بدأت تنتشر الدعوات القائلة بأن العلم ليس بالضرورة مناقضاً للروح. الطب الحديث يمكن أن يستفيد من الطب التقليدي. الكيماويات لا تستغني عن الأعشاب. وتقنيات الاتصال والتنقل لا تنفي طاقات التبادل الروحية. وأن العوامل الاقتصادية والسياسية والمناخية ليست وحدها مسؤولة عن التاريخ. بل هناك العوامل الخفية الدينية والفلكية وتأثيرات الكواكب. وأن علم النفس والتربية لا ينفي تأثير عوامل الايمان الديني في حركة التاريخ وحياة الشعوب. وان الاعتقاد بالنظريات الحديثة لا يغني عن الاعتقاد بالنظريات القديمة. علماً أن هذه التيارات لا زالت ضعيفة ومشتتة ومحاصرة من قبل التيارات (العلمية) المدعية بالعقلانية الانتاجية المدافعة عن نظام السوق ومؤسساته الاعلامية والتربوية الجبارة.

كثيراً ما يساء فهم الميل الوسطي باعتباره نوعاً من التوفيقية والنفعية المتغيرة. الحقيقة أن هناك فرقاً بين هذين المفهومين. التوفيقية هي محاولة الجمع بين النقيضين جنباً الى جنب والمناورة بالاعتماد على كل منهما، بينما الوسطية هي البحث عن الاعتدال بين معتقدين متطرفين بتناقضهما. لوأخذنا معتقدين متضادين مثل العلم والدين، فإن التوفيقي يحاول أن يكون بنفس الوقت متديناً جداً وعلمياً جداً دون أي محاولة لايجاد منطق واحد يجمع بين الموضوعين، إذ تراه ينتقل من حالة التزمت الديني الى حالة التزمت العلمي حسب المزاج والظرف والمصلحة. أما الوسطي فانه يبحث عن المنطق الواحد الذي يجمع بين العلم والدين مع تشذيب كل منهما من جوانبه المتطرفة. أي أنه يعتمد على مبدأ يفترض فيه أن القوى الغيبية والالهية يمكنها أن تكون حقيقة موجودة ومسؤولة عن انبثاق الدين، لكن

هذا لا يمنع أن تكون هذه القوى أيضاً مسؤولة عن العلم ومانحة للانسان القدرة على التفكير والابداع.

بهذا المعنى فان الوسطي هو أولاً وأخيراً من يعتمد على مبدأ النسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود. الخير لا يكمن إطلاقاً في أحد طرفي الموجودات، ولا الشر يكمن في الطرف الآخر. الخير والشر يكمنان في الطرفين معاً وفي آن واحد: البرد وحده هو الشر، كذلك الحر وحده هو الشر، والانسجام والتوسط بين الاثنين هو الدفء والراحة للانسان والطبيعة. الخير يكمن في انسجام الثنائيات، والشر يكمن في تناحرهما. الأنثى وحدها هي الوحشة والجفاف، والذكر وحده هو السأم والموت، الانسجام والتوافق بين الاثنين هو الحب والخصب والحياة. بين الماضي والمستقبل هناك الحاضر، والحاضر هو الخير وهو الواقع، وهو الماضي والمستقبل بآن واحد. ان الشر لا يكمن في النار وحدها بل في الثلج أيضاً، أما الخير فيكمن في وسط النار والثلج، أي الماء الجاري من اتحادهما، وهو الارتواء والخصب وسر الحياة.

هكذا جميع ثنائيات الوجود يكمن خيرها في تكاملها وتوسطها، وشرها في تناحرها وتطرفها. إذا كان الله هو رمز الخير، فإن الله إذن هو انسجام الثنائية ومركزها، والشيطان هو تطرف الأحادية وجانبها الأقصى.

المشروع العربي لخلق فكر وسطي عالمي

يبدو أن العرب (وعموم العالم الثالث)، بسبب تبعيتهم التلميذية للغرب، كالعادة لم يتمكنوا حتى الآن من الاستفادة من هذا الجانب الايجابي الناشىء في الغرب. تراهم قاموا باقتباس تبسيطي متطرف لهذه التحولات العقلية الناشئة. جميع التيارات السياسية والثقافية المعروفة في العالم العربي: ليبرالية وقومية وماركسية، كلها قلدت الغرب بتلميذية كسولة ومشوهة ومتطرفة. وهاهم المتدينون يكررون نفس الخطيئة. إن تنامي التيارات الدينية لم يكن إلا إنعكاساً مضخماً وكاريكاتورياً للتيارات الجديدة المتنامية في الغرب، وهي التيارات البيئوية والسلمية المنادية بالعودة الى الطبيعة واحترام الأديان والروحانيات وتقاليد الشعوب. لكن الإسلاميين بسطوا المسألة وتطرفوا في تفسيرها: الكفاح من أجل الطبيعة والجمال والصحة صار هو الكفاح من أجل الآخرة والجنة الموعودة. الكفاح من أجل بساطة الحياة واحترام التراث الروحي، تحول الى كفاح من أجل تراث مطلق بجماله وزهده وتدينه. والنتيجة أن

الأصـوليين في بلـدانا يجاهـدون مـن أجـل العـودة الى مـاضٍ فردوسـي والتقـدم نحـو مـستقبل فردوسي كذلك. أما الحاضر فقد استحال الى جهنم، والبشر مُسخوا الى شياطين تتصارع مع ملائكة!

رغم مرور أكثر من قرن على انطلاقة الحركة الإصلاحية في المجتمعات العربية، لا زال العقل العربي يعاني من انفصامية ازاء أسئلة عن ثنائيات تتفاقم وتزداد حدة مع الزمن: الانسان مخيَّر أم مسيَّر؟ الأفضلية للنفس أم للجسد؟ الأسبقية للمادة أم للروح؟ عاطفة أم عقل؟ علم أم دين؟ ليبرالية أم اشتراكية؟ ديمقراطية أم مركزية؟ وحدوية أم قطرية؟ تراث أم حداثة؟ علمانية أم شريعة؟ قومية أم عالمية؟ طائفية أم وطنية؟... الخ.

كل يوم تضاف ثنائيات جديدة على هذه القائمة. حول هذه المقارنات انقسمت مجتمعاتنا ونخبنا الى أحزاب وطوائف وجيوش تتصارع حتى الموت، من أجل مساندة جانب ضد جانب آخر.

إن الصراع بين الثنائيات لا يمكن الغاؤه تماماً من العقل، فهو ميل طبيعي عند البشر. ولكن المشكلة تحدث عندما يهيمن تماماً على العقل هذا الميل الثنائي ولا يجد الفكر الانسجامي الوسطي الذي يخفف من حدته. الفكر الوسطي يكون دوره أشبه بالهيدروجين في الجو، إذ بوجوده يمنع تفاعل الأوكسجين مع النار، ويخفف من حدة الصراع بين الطرفين، وبالتالي يجنب الأرض حرائق لا تتوقف. هكذا بالضبط هو دور الفكر الوسطي.

إن مشروع الفكر الانسجامي الوسطي يعتمد في تكوينه على الأهداف التالية:

أولاً: عقد الصلح والتقارب بين منهج التحديث والعلم وبين الدين والتراث. إنه مشروع كبير يتلخص بتحرر العلمانيين من نظرتهم الاستعلائية للتراث الديني من أجل دخولهم هذا الميدان وطرحهم من جديد جميع الأسئلة والمجادلات التي كانت سائدة في عصور الحضارة العربية الاسلامية. وهذا يعني تخليص الدين والتراث من سيطرة تلك النخبة من الفقهاء المنعزلين عن الحداثة والعلم، وإحداث نهضة فكرية دينية أشبه بالتي حدثت في أوربا بالنسبة للمسيحية. وهذا يتطلب أولاً نبذ تلك الفكرة العلمانية التبسيطية التي تعتقد أن الدين قد تجاوزه الزمن وهو ضد الحضارة والحداثة والعلم.

والمسألة الأخرى المهمة في هذا المجال، هي نبذ تلك الفكرة المهيمنة منذ قرون، على أن تراثنا الديني والقومي الوحيد هو التراث العربي الاسلامي. أي إعادة الاعتبار للتراث

الحضاري الذي سبق الحقبة العربية الاسلامية والذي اعترف به القرآن أيضاً، إنه تراث بلاد النهرين والشام وبلاد النيل واليمن والحجاز وشمال افريقيا. وهذا يعني القيام بنهضة فكرية تعتمد الترجمة الكثيفة لذلك التراث الحضاري الممتد على عدة آلاف من السنين والمتضمن جميع المعتقدات والأديان التي صنعها الأسلاف وشكلت الأساس التراثي للحضارة العربية الاسلامية، مثل أديان النهرين والنيل وعلومهما التنجيمية التي شكلت مصدراً أساسياً في تطور المعارف الانسانية. كذلك دراسة باقي الأديان التي رغم انقراضها فإنها لا زالت حية في كل تفاصيل معتقداتنا الدينية والشعبية والثقافية مثل المانوية البابلية والهرمزية المصرية، بالاضافة الى الأديان التي لا زالت حية مثل الصابئة واليهودية والمسيحية.

إن الفكر الوسطي الانسجامي يبتغي من هذا أساساً تصحيح حالة الانفصام المرضي (الشيزوفيرنيا) التي تسود العقل العربي، بسبب الانفصام التاريخي والعقلي في الشخصية العربية، بين الانتماء للحقبة الحديثة، أوالانتماء للحقبة العربية الاسلامية، أو الانتماء للحقبة الحضارية والدينية السابقة للاسلام.

ثانياً: إضفاء بُعد إنساني عالمي على (المذهب الوسطي) الشرقمتوسطي مع احترام الخصوصيات الوطنية والمعتقدية لكل شعب. قد تبدو طريفة وغير واقعية هذه الدعوة العالمية لمشروع فكري عربي، لأننا تعودنا الاعتقاد بأننا حتى الآن غير قادرين على معالجة مشاكلنا فكيف بنا بمشاكل العالم؟ وهذا الكلام يبدو صحيحاً لأول وهلة، لكن التمعن قليلاً بالتفاصيل التاريخية والمعاصرة يكشف عن الأهمية الكبرى لمثل هذه المسألة. إن جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا منذ فجر التاريخ وحتى انتهاء الحضارة العربية الاسلامية، كانت كلها تتميز بصفة أساسية ثابتة رغم جميع المتغيرات: الشمولية الانسانية العالمية. إن سر قوة وحيوية جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا أنها كانت ذات دعوة عالمية من الناحية السياسية والفكرية والدينية. أفضل مثال، أن هذه المنطقة كانت مهد أكبر دينين عالميين شاملين لجميع البشر (المسيحية والاسلام)، بالاضافة الى المانوية البابلية والهرمزية المصرية اللذين تحولا الى دينين عالميين لبعض الوقت لكنهما ذابا أخيراً في المسيحية والاسلام. أمر يدعو للتساؤل حقاً أن جميع هذه الأديان قامت بدعواتها العالمية في ظل وضع وطني يسوده الضعف والتشرذم وهيمنة الأجنبي، ومع هذا فإن صناع هذه الأديان كانوا يدركون في حدسهم الموروث أن إنقاذ شعوبهم يمر بالضرورة بالدعوة الى

انقاذ الانسانية جمعاء. وإلا كيف تفسر هذه الثقة والجرأة الخارقة لأن يقوم النبي عيسى (ع) ثم تلامذته بدعوة المحتلين الرومان الى اعتناق دينهم! نفس العمل مارسه الهرمزيون في مصر، بعدها يقوم ماني البابلي بنشر أتباعه في جميع أنحاء الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية. وبعد قرون يقوم النبي محمد (ﷺ) وأصحابه بدعوة ملوك وأباطرة العالم لاعتناق الاسلام بينما هم لا يمتلكون حتى إمارة صغيرة يحتمون بها، ووصلت ثقتهم بدعوتهم العالمية أنهم حققوها فعلاً خلال أقل من قرن!

أسباب كثيرة فرضت على شعوب المنطقة أن تكون بطبعها عالمية، لعل أهمها أنها في وسط العالم ممر ومعبر ومرتع لجميع الحضارات والأعراق والشعوب في قارات العالم الأولى آسيا وافريقيا وأوربا، يكفي أن تكون هذه المنطقة من أكثر بقاع العالم التي ظلت تمتزج بها على الدوام الأجناس البشرية لقارات العالم القديم : آسيا وافريقيا وأوربا.

إن مكمن ضعفنا هو الانغلاق القومي الديني، وسر قوتنا في عالميتنا التي من خلالها فقط تتشكل قوميتنا. هذا يعني إعطاء الناحية الوطنية والمبادىء الوطنية بُعداً عالمياً، ليس بالمعنى التضامني فحسب، إنما في جوهر المبدأ بحيث أن العالمية والوطنية يكونان كلاً واحداً من الصعب الفصم بينهما. وهذا بالضبط المبدأ الذي منح القوة للنهضة الأوروبية وبرر حروب الحقبة الاستعمارية، أي ما أطلقوا عليه (المذهب الانساني).

لكن هذه المرة فإن البشرية ربما تكون قد استفادت من تجاربها السابقة التي أدت دائماً الى ذوبان المبدأ الانساني العالمي بالمصلحة القومية والدينية المغلقة. الهدف والطموح الآن هو العكس، أي ذوبان الحالة الوطنية بالهدف الانساني الأكبر.

إن التقارب العالمي الحالي يفرض التوحد. وإن كانت الأعوام الأخيرة تشهد بروز النزعات القومية والدينية والمذهبية، وهي بحقيقتها ليست ضد التقارب والتوحد العملي الحاصل بين الشعوب، بل العكس تماماً أي ضد الهيمنة القومية التي تمارسها بعض الشعوب القوية باسم العالمية والأخوة الوطنية. معنى هذا أن النزاعات الحالية هي أبداً ليست ضد الحالة الانسانية العالمية بل ضد التعصبية القومية التي تحاول أن تستخدم العالمية من أجل الهيمنة وقمع الشعوب الضعيفة. إذن الوحدة العالمية لا تقوم مثل السابق على أساس القوة واستحواذ المجموعات القوية على المجموعات الضعيفة ومسخ تقاليدها ولغاتها ومعتقداتها. بل إن العالمية الجديدة تقوم على أساس خلق مذهب عالمي انساني شامل يحترم

جميع خصوصيات الأفراد والمجموعات والشعوب ويخلق الانسجام بين المصالح الخاصة المختلفة والمصلحة العليا للبشرية بالتقارب والتفاهم والعيش بسلام وعدالة على هذه الكرة الأرضية التي تتحول يوماً بعد يوم الى قرية عالمية.

إن العرب لقادرون على التبشير بهذا المبدأ، وهذا أولاً وقبل كل شيء يحل مشاكلهم الوطنية الداخلية والطائفية والدينية، ثم ثانياً يمنحهم قوة إنسانية في تعاملهم مع العالم وتقديم هويتهم ودينهم بصورة جذابة وإيجابية خالية من التهديد والعنف ورغبات الاستحواذ والفرض. هذا يتطلب قبل كل شيء إعادة الروح العالمية للاسلام، ليس عن طريق تصدير الثورة ــ كما حاولها الشيوعيون في روسيا وغيرهم من قبل، ويحاولها الأصوليون الاسلاميون الآن ــ بل من خلال إعطاء معنى واضح وتفصيلي للموقف الانساني للاسلام القائم على أساس احترام حقوق الانسان، بما يعني هذا احترام حرية كافة الأديان والمعتقدات لجميع البشر. إن الفكر الوسطي لقادر على نفخ الروح الانسانية العالمية في الاسلام وذلك بتحويله الى دين شامل وحي وديناميكي يمكن أن يشمل حتى غير المسلمين، فأي انسان مظلوم مهما كان دينه أو معتقده من شأن الاسلام الاهتمام به والتضامن معه: الاسلام دين الله، والله رب جميع البشر، إذن الاسلام دين جميع البشر حتى الذين لم يسلموا. المسلم الحقيقي ليس هو من يُدخل الآخرين في الاسلام، بل من يُدخل الاسلام في قلوب الآخرين.

ثالثاً: التحرر من سيطرة التمركزية العقلية الغربية، والانفتاح على التراث الفكري والديني لجميع الشعوب. إن دراسة الهندوسية والتاوية والمجوسية وأديان شعوب افريقيا وآسيا وتركستان وهنود أمريكا، يجب أن تكون من المصادر الأساسية في الترجمة والبحث والتدريس في المدارس والجامعات. يوماً بعد يوم يكتشف الغرب نفسه أن في الفلسفة التاويه الصينية واليوغا الهندية وعلوم التنجيم التقليدية والمعتقدات السحرية الافريقية والهندية، ثمة الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الحياة المعاصرة.

ما دام الانتاج العقلي الغربي هو المهيمن على حياتنا الروحية فاننا لن نستطيع أن نخلق التوازن الروحي المطلوب في ذواتنا من أجل التحرر وبناء حضارة جديدة. إن مواجهة الهيمنة العقلية الغربية لا يكون فقط بالعودة الى تراثنا الديني والقومي، بل كذلك بالعودة الى تراث الشعوب الأخرى التي تعودت هي أيضاً الخضوع للغرب. وهذا يتطلب القيام بنهضة فكرية للاتصال بالشعوب الأخرى وتبادل المختصين بالتراث وعقد المؤتمرات

الفكرية والدينية وتكوين لجان بحث وترجمة مختصة بالتعريف بتراث الشعوب ومدى علاقته التاريخية بتراثنا الديني والقومي. هذا الانفتاح على التراث العالمي يمنح العقل العربي البعد العالمي والديناميكية والقدرة على التطور والتأثير المستقبلي على العالم أجمع، بالاضافة الى أنه يغني الشخصية العربية ويمنحها الثقة بالذات والقدرة على التحرر من الهيمنة العقلية الغربية. ثم ان هدف التحرر من هذه التمركزية الغربية لا يعني أبداً العداء لكل ما هو غربي، بل الانفتاح على الابداعات والتقنيات الغربية مع التحلي بروح النقد والتمييز بين ما هو مفيد وما هو سيء لمجتمعاتنا وللمجتمعات الغربية نفسها. لأن انفتاح الفكر الوسطي على التراث العالمي لا يتنافى مع حقيقة أن المجتمعات الغربية تملك تراثاً روحياً ومادياً يشكل جزءاً من التراث العالمي. ثم ان هدف انقاذ العقل العربي من ثنائية التطرف والانفصام، يشمل أيضاً جميع الانسانية بما فيها المجتمعات الغربية نفسها.

رابعاً: الانفتاح على جميع المناهج والتيارات الفكرية التي اكتشفتها البشرية وتجنب الانغلاق والتعصب لمنهج واحد سواء في المجال الابداعي أو العلمي أو التحليل التاريخي والاجتماعي. مثلاً، يمكن الاستفادة من علم النفس لتحليل الشخصيات ونشاط الجماعات. الاستفادة من المنهج الماركسي في تحليل العلاقة بين الطبقات ودوافع الأفراد المصلحية. الاعتماد على المنهج البنيوي في تحليل العلاقة بين مكونات البنية الاجتماعية أو الإبداعية. الاعتماد على المنهج «التنجيمي» والطبيعي لمعرفة تأثير دورة الأفلاك البيئية على الأفراد والجماعات. الاعتماد على المنهج الثقافي لاكتشاف ديمومة الشروط والصفات في حركة التاريخ. يمكن حتى الأخذ بنظر الاعتبار الرؤية الغيبية والدينية في تحليل الوقائع والأحداث ودور الايمان في نشاط الأفراد والجماعات.

هذا يعني: أن الفكر الوسطي يؤمن أنه ليس هنالك منهج أو رؤية واحدة تحمل كل الحقيقة، بل إن كل منهج يحمل جزءاً من الحقيقة ودور النشاط الفكري الانساني يتحدد أولاً في احترام جميع المناهج والانفتاح عليها من أجل اكتشاف ذلك الجزء من الحقيقة الكامن في كل منها.

وهذا الانفتاح الفكري يعني بالضرورة أيضاً الانفتاح على جميع الوسائل والتقنيات العلمية واللاعلمية (شعبية ودينية وسحرية)، في التعامل مع ضروريات الحياة. مثلاً: في مجال الطب والعلاج، هنالك الوسائل التحليلية العلمية والأدوية الكيمياوية والعمليات الجراحية، لكن هذا لا ينفي إمكانية الاستفادة أيضاً من الأساليب الطبية الشعبية وأدوية

الأعشاب التقليدية والأبر الصينية. ثم ان أساليب العلاج النفسي الحديثة يمكن أن تستفيد كثيراً من أساليب الإيحاء السحري الشعبية وتقنيات اليوغا الهندية، وحتى تقاليد الصلاة وتقديم النذور للقديسين ومراقد الأولياء، من الأمثلة الشائعة في هذا المجال، أن الكثير من علماء النفس اكتشفوا أن عملية الاعتراف أمام الكاهن التي يمارسها المسيحي يمكن أن تكون ذات مفعول إيجابي نفسياً وأخلاقياً بمستوى حالة المريض أمام المحلل النفساني. كل هذه الأمور يحاول الفكر الوسطي أن ينفتح عليها، ليس بهدف تبنيها الساذج، بل من أجل دراستها ومحاولة استخراج كل ما مفيد منها، وتخليصها من سيطرة الدجالين والمشعوذين. ها هو الغرب المتمسك بالعلم اضطر لتشكيل اللجان والمعاهد المتخصصة لدراسة ما يسمى بالظواهر الفوقطبيعية، لأنه أدرك أن في هذه المجالات المهمشة من قبل العلميين ثمة إمكانات كثيرة للاستفادة منها في الطب والتربية والاتصالات بل حتى في مجالات التجسس والتأثير السياسي والعسكري.

خامساً: البحث عن نظام سياسي واجتماعي جديد يجمع بين محاسن الديمقراطية والتعددية ومحاسن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. إذا كان التاريخ الحديث قد أثبت فشل ما يسمى بالتجارب الاشتراكية، فإن التاريخ الحديث كذلك يثبت يوماً بعد يوم فشل الليبرالية القائمة على منطق هيمنة الأقلية الثرية (أفراداً وشعوبا) على الأغلبية الفقيرة (أفراداً وشعوباً). إذا كانت الاشتراكية قد فشلت بسبب عدم قدرتها على احترام التعددية الفكرية والخصوصيات الروحية والدينية للشعوب، فإن الليبرالية يتفاقم فشلها بسبب عدم قدرتها على احترام العدالة الاجتماعية على صعيد الوطن والعالم أجمع وسيطرة نظام السوق القائم على مبدأ الربح والمنافسة التي تصل الى حد شن الحروب الاعلامية والنفسية والعسكرية من أجل احتكار السوق وإبعاد المنافسين.

يدعي المدافعون عن النظام الليبرالي بالعقلانية والعلمية في تسيير عملية الانتاج وتطوير المجتمع. لكنه يكفي التمعن قليلاً بالتبذير الهائل للطاقة البشرية وثروات الطبيعة الذي يمارسه نظام السوق لكي نكتشف مدى العبثية والجنون الذي يسيطر على العالم : ما يقرب من ثلث طاقة البشر وثروات الطبيعة تبذر على انتاج الأسلحة المدمرة وصناعة الحروب. جزء كبير من الانتاج يتمثل ببضائع مكررة وغير مفيدة لا تخدم إلا عملية المنافسة بين الشركات، غابات بكاملها يتم استهلاكها بأيام من أجل انتاج ورق لعدد واحد من مجلة تلقى في البحر. جزء كبير من الانتاج يتمثل بوسائل الاعلام الجبارة

للترويج للبضائع وتشجيع عملية الاستهلاك والمنافسة ومسخ الروح الانسانية وتضخيم الاحساس بالنهم والحاجة لدى الناس الى حد الضياع والانتحار. جزء كبير من الانتاج يمكن اختصاره والاستغناء عنه، لأنه لا يخدم إلا أرباح الشركات ويشكل ضرراً على المجتمع، مثل هذا العدد الهائل من السيارات وما تستهلكه من بترول وما تسببه من حوادث رقم واحد يكشف عن مدى هذا الجنون: حتى أعوام الثمانينات فان عدد السيارات في سويسرا ـ 7 ملايين نسمة ـ يضاهي عدد السيارات في الصين ـ ما يقرب المليار ونصف المليار نسمة ـ!

هذا البحث عن الطريق الوسطي الثالث بين الاشتراكية والليبرالية، يعني أساساً عقلنة ميول التحديث التقني والتخفيف من حدة المكننة الجبارة التي تكتسح بلا رحمة حياة البيئة وتقاليد المجتمع الموروثة. المصانع والمختبرات وناطحات السحاب لا تنفي أهمية وسائل الانتاج التقليدية واحترام خصوصيات المجتمع والبيئة. السدود الجبارة ومكائن الضخ والأسمدة الكيماوية وأدوية النباتات لا تنفي أهمية دراسة وسائل الري التقليدية والأسمدة الطبيعية وطرق الزراعة الموروثة. كل يوم يكتشف الغرب أن الجنة الموعودة لا يمكن بناؤها من خلال التصنيع والتكنولوجيا وحدهما، بل إن للبيئة وتقاليد الحياة محاسنها وأهميتها في تطوير المجتمع. غدت معروفة للجميع المخاطر الكبرى التي تحيق بالكرة الأرضية من جراء تلوث الجو وثقوب الأوزون ونقص الأوكسجين وتسمم النبات والمياه وانقراض الحيوان. حوادث الطرق وحدها تقتل يومياً من البشر ما يضاهي عدد ضحايا الحروب والطواعين التاريخية، بالاضافة الى أنتشار الأمراض الاجتماعية والتعقيدات النفسية والجريمة والبطالة والمخدرات والعنف، كل هذا من جراء التطور التقني والتصنيع والهجرة نحو المدن الكبرى ونظام الانتاج المادي الذي تحول أشبه بمارد انعتق من سيطرة الانسان وراح يعبث بالحياة والطبيعة ويشوه كل ما هو جميل وحي في الكرة الأرضية.

❖ ❖ ❖

إن هدف المبدأ الوسطي البحث عن إمكانات خلق مجتمع انساني يستطيع أن يعيش في ظل نظام انساني عالمي يحترم الخصوصيات الدينية والقومية. وهذا النظام كذلك من ناحية ديمقراطي ومتعدد الميول الفكرية والسياسية، ومن ناحية اخرى اشتراكي يضمن العدالة الاجتماعية من خلال سيطرة المجتمع (وليس الدولة) على وسائل الانتاج عبر الهيئات المدنية والنقابات والجمعيات والمصارف التعاونية والشعبية.

تبقى المشكلة أن مثل هذا النظام من الصعب جداً تحقيقه بشكل متكامل على صعيد بلد واحد. النظام السياسي والاقتصادي صار متداخلاً على صعيد العالم أجمع ويبدو من المستحيل انفصال بلد ما عن باقي العالم، لهذا فإن الكفاح الأساسي يتمثل بالعمل على خلق تيار عالمي يشمل الحكومات والأحزاب والجماعات الدينية والثقافية للمطالبة من خلال وسائل الإقناع والكفاح السلمي باتفاق البشرية (عبر الأمم المتحدة مثلاً، وكذلك الهيئات الدولية مثل مجموعة عدم الانحياز والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي) على إيجاد حلول مشتركة وعامة للبشرية جمعاء وانقاذها من التدهور الذي لو استمر على هذا المنوال سيؤدي بالأرض الى كارثة جماعية من التلوث والفقر والحروب والتدمير الذاتي. وهذا يعني أن هدف بناء نظام انساني ديمقراطي وعادل لم يعد حلماً طوباوياً لمجموعة من المناضلين، بل صار ضرورة حياتية للانسانية جمعاء، في الغرب مثلما في العالم الثالث علمانيون ودينيون، وحتى الأثرياء والسياسيون المستفيدون ظاهرياً ووقتياً من ديمومة الكارثة العالمية الحالية. إن الدعوة لفكر وسطي انسجامي ليست دعوة لمذهب أو معتقد سياسي أو ديني ينافس المعتقدات والأديان السائدة، بل هي دعوة لاتخاذ الواقعية والنسبية في التعامل مع جميع المعتقدات والأديان السائدة. إنها قد تكون دعوة خيالية وصعبة التحقيق، لكنها في كل الأحوال ليست أسوأ من الدعوات الأخرى السائدة التي فشلت حتى الآن بانقاذ البشرية من الفقر والتناحر والدمار الذاتي. قد يصح القول ان القانون الوحيد الذي أثبته تاريخ البشرية منذ فجر الحضارة وحتى الآن هو استحالة سيادة رؤية مذهبية أو دينية واحدة حتى في داخل الشعب ذي المعتقد أو المذهب أو الدين الأوحد. إن قانون التنوع والتعددية والنسبية في مجال الفكر والايمان هو الحقيقة الوحيدة المطلقة التي مارستها جميع الأديان والمعتقدات حتى وإن حاولت عدم الاعتراف بها. إذن فإن هدف الفكر الوسطي أولاً الاعتراف بهذه الحقيقة، وثانياً الكفاح الفكري والضميري من أجل إيجاد قاسم مشترك ورؤية وسطية للحوار والتفاهم بين جميع التيارات بهدف خلق برامج عمل مشتركة لانقاذ الأوطان.

إن الحقبة الحالية التي تعيشها شعوب المنطقة العربية تتشابه بالكثير مع الحقب المظلمة التي تميزت بالضعف وهيمنة الأجنبي وفقدان الثقة بالذات وغموض الهوية الوطنية والقومية وطغيان النزاعات الوطنية والحزبية والقبائلية والطائفية. إنها نفس إشكاليات الحقب السابقة التي دفعت أسلافنا الى تقديم مشاريع فكرية ودينية عالمية لانقاذ أوطانهم من خلال الدعوة لانقاذ العالم أجمع.

الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين

سُئل يوماً الكاتب المصري يوسف إدريس، كيف استطاع أن ينتقل من طبيب جراح الى كاتب قصة؟ وكان جوابه: «إني لا أشعر بفرق كبير بين المهنتين... بالأمس كنت أشرّح الانسان بواسطة المبضع، والآن أشرّحه بواسطة القلم...»!

رغم تنوع تعريفات كلمة «مثقف» وغموض المعنى في جميع لغات العالم، إلا أن ثمة تعريفين سائدين رغم تمايزهما فإنهما متداخلان في المعنى. أولهما التعريف العام الشامل لجميع المتعلمين ممن يطلق عليهم تسمية «شغيلة الذهن»، أي كل من زاول العمل الذهني بتنوعاته العلمية والتقنية والكتابية والفنية، من مهندسين وأطباء وإداريين واقتصاديين وسياسيين وكتاب وفنانين. هؤلاء يشكلون عموماً الفئات المثقفة مقارنة بـ «شغيلة اليد» من عمال وفلاحين وحرفيين وعسكر وغيرهم. علماً أن هذا الفصل بين الفئتين يجب أن يعامل بصورة نسبية بسبب التداخل التقني بين العمل الذهني والعمل اليدوي. ثمة تعريف ثان لكلمة «مثقف»، هو أضيق معنىً من الأول، إذ يشمل قطاعاً واحداً من «شغيلة الذهن». فيكون «المثقف» هو الذي يزاول النشاط في المجالات الجمالية الروحية والفكرية: الفن والأدب والفكر من خلال الكتابة والرسم والتمثيل والتصوير والغناء. بصورة أكثر دقة، يقصد بالمثقفين، الكتاب والفنانين بجميع تنوعاتهم. على هذا الأساس يمكن القول أن من تبقى من قطاعات التقنيين والأطباء والاختصاصيين والسياسيين وغيرهم، يمكن تمييزهم بتسمية «مثقفين عمليين».

بالنسبة للمثقفين في بلداننا، فإنهم يعانون من إشكاليات ونواقص ذاتية ووطنية رغم خصوصيتها فإنها عموماً تتقارب مع أوضاع المثقفين في العالم الثالث بسبب الخضوع المشترك لظروف الهيمنة الاستعمارية وسيطرة الثقافة الغربية (طبعاً الثقافة السوفيتية والماركسية جزء من الثقافة الغربية). لكن يمكن القول أن أوضاع مثقفي منطقة المشرق: «العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن»، بينها قواسم مشتركة في التاريخ والميراث الحضاري والعقلية السائدة والظروف السياسية بالاضافة الى تشابه المجتمعات من ناحية التنوعات الدينية والمذهبية والسكانية (نقترح استخدام فئة سكانية بدل قومية أو عرقية).

يتوجب التنويه الى أن تعداد نقاط الخلل لدى المثقفين لا يقصد به جميع المثقفين، لأننا ندرك أن بينهم الكثيرين ممن يمتلكون الأصالة الذاتية والوطنية في إبداعاتهم. المقصود إذن هو القسم الأكبر من المثقفين الذين خضعوا بدرجات متفاوتة لحالة الانمساخ والانقطاع عن الواقع

مثل الكثير من مثقفي العالم العربي وعموم العالم الثالث. هذا الخلل بالحقيقة يشمل المجتمع بأكمله بقطاعاته المتعلمة وغير المتعلمة وخصوصاً النخب المثقفة التي تتحمل المسؤولية الأولى بخلق وعي المجتمع والدولة. يمكن تعداد نقاط الخلل كالتالي :

أولاً : علاقة المثقف بالمجتمع :

يبدو أن العلاقة متخلخلة تماماً بين ثقافة النخب المتعلمة وثقافة عموم المجتمع الواقعية والموروثة. قد تكون هذه الإشكالية طبيعية ، إذ تعاني منها حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة. لكن في بلدان العالم الثالث فإن الفروق المادية والثقافية بين فئات المجتمع شاسعة الى أقصى الحدود. في بلد «متقدم» مثل فرنسا ، المسافة الحضارية بين المثقف الفرنسي والفلاح الفرنسي لا تتعدى المسافة الجغرافية بين القرية الفرنسية والعاصمة باريس. بينما في العراق فان المسافة الحضارية بين الفلاح والمثقف تتجاوز المسافة الجغرافية بين القرية العراقية والعاصمة بغداد ، بل هي تفوق المسافة بين العراق وكل من باريس أولندن أوموسكو ! إن ظروف التبعية المادية الثقافية فرضت واقعياً الهيمنة الثقافية الروحية لعواصم العالم «المتقدم». بمعنى أن المثقف الغربي يستمد مرجعيته من مركزه الثقافي الوطني أولاً ومن ثم من المراكز الثقافية العالمية ، بينما مثقف العالم الثالث فانه رغماً عنه ظل يستمد مرجعيته من مراكز الثقافة العالمية البعيدة جغرافياً وحضارياً !

هذا الواقع الانفصامي للمثقف في بلداننا أنتج لديه شعوراً عميقاً بالاغتراب الروحي عن المجتمع بتنوعاته الثقافية والسياسية والحياتية. لهذا السبب ، ساد لدى النخب المتعلمة نوعٌ من مشاعر النرجسية والاستعلاء الممزوجة بروح العطف الأبوي والشفقة نحو باقي المجتمع «الجاهل». وتجلت هذه الحالة في جميع المعتقدات والإبداعات الثقافية والسياسية والعلمية. وتشترك في هذا الاحساس جميع النخب المتعلمة والفئات العليا والغنية ، حتى التي تؤمن بالثورة والعدالة. بل حتى الأصوليين ودعاة الدين والعودة الى ميراث السلف الصالح سقطوا منذ البدء في اغراءات النرجسية والترفع عن عقلية المجتمع ! إذا كان المثقف المدني (نقترح استخدام «مدني» بدل «علماني» لتجنب الإشكاليات التاريخية الخاصة بفرنسا وأوربا) يتهم عادة المجتمع بـ «الجهل والتخلف» ، فإن «المثقف الديني» راح هو الآخر يمارس نرجسيته واستعلائه من خلال اتهام المجتمع بـ «الكفر والمروق عن مبادىء السلف الصالح».

كل نخبة تختلق لها فانتازيا خاصة بها لتبرير تعاليها وشفقتها الأبوية والبنوية باسم سلطة المعرفة والتفقه.

بصورة أوضح نقول: إن مشكلة المثقف في بلداننا أنه اكتسب نفس عقدة المثقف الغربي، لكن بصورة متطرفة ومقلوبة: إن المثقف الغربي ينظر الى مواطنيه بدرجة معقولة من الاستعلاء ضمن حدود التمايز داخل الحضارة الواحدة، لكن هذا المثقف رغماً عنه يشارك مجتمعه بمعتقدات الاستعلاء والغرائبية الأنثربولوجية عند النظر الى المجتمعات «المتخلفة» والتي أطلق على إبداعاتها بكل بساطة تسمية «فولكلور» (كشف عن هذه الحالة بصورة رائعة ادوارد سعيد في كتابه المعروف عن الاستشراق). أما بالنسبة لمثقف العالم الثالث فان مشكلته تكمن في تبنيه نفس نظرة المثقف والمواطن الغربي نحو ثقافة شعبه وعموم الشعوب «المتخلفة»!

للتمثيل على هذه الحالة، نستشهد بذلك الاعتقاد الباطني والعلني المتداول بين الكثير من المثقفين (وأشباه المثقفين) (نقول الكثير وليس الجميع): أن الإبداع والذكاء هي خصال خاصة بالمثقفين. وهذا يعني التعامل مع جميع نشاطات الناس ومعتقداتهم وإبداعاتهم، على أنها نشاطات شعبية «فولكلورية». طبعاً هناك استثناءات إيجابية منها مثلاً انتشار ظاهرة الاهتمام بالشعر الشعبي وكذلك نمو التيارات الباحثة عن الأصالة في الموسيقى والرسم والأدب.

هذا الوهم الاستعلائي شكل دائماً حاجزاً بين المثقف والثقافة الوطنية والشعبية، فتشوهت الرؤية الثقافية وساد زيف الإبداع والفهلوة الاستثقافية وهيمن الميل الى استخدام الرموز العصية والمستوردة من نوعية: «يا طائر البطريق... وأرفع قبعتي تحية لك يا سيدتي...»! لقد طغى الغموض والتعقيد الى درجة أنه صار شرطاً أساسياً للقيمة الإبداعية: تقديس الرمز المجهول واللغة العصية على الفهم ذات المفردات القاموسية والجمل الطويلة المعقدة التي لا تعرف منها الفاعل والمفعول به إلا بعد قراءتها مرات عديدة. في القصص والأشعار يجب أن تكون المدن مجهولة والشخوص بلا أسماء والأحداث بلا أوطان ولا تواريخ.

لوحات الرسامين مهما احتوت على أشكال واقعية فانها بالضرورة يجب أن تلطخ بالألوان القاتمة والضباب الداكن الذي يغطي مساحة اللوحة ويخفي محتواها.

ترانا تعودنا الاستماع منذ أعوام الى الجواب المكرر، للرد على شكوى الناس من هذا الغموض والإبهام: «إذا كان المتلقي لا يفهم فهذه مشكلته. عليه أن يعي أكثر ليدرك مقاصدي...»! كل هذا الغموض والتعقيد يبتغي بالنهاية أن يشعر «المواطن المسكين» بجهله

وعدم قدرته على الارتفاع الى مستوى هؤلاء «المبدعين الكبار». ولا يدري هذا المواطن أن قسماً كبيراً من هؤلاء المثقفين أنفسهم غير قادرين على «فك طلاسم» بعضهم البعض. الجميع يشتركون بديمومة هذه «الأكذوبة الكبرى» من خلال «هز الرأس» أمام اللوحة أو النص ثم التشدق بالأسماء الرنانة من نوع دالي وبيكاسو وسارتر وفوكو لتغطية العجز عن الفهم الحقيقي!

صحيح أن «الغموض الطبيعي» يمكن أن يكون ميزة فنية وإبداعية مقبولة. لكن المشكلة أن هذا «الغموض الأدونيسي» أصبح «الممثل الشرعي الوحيد» للإبداع، وصار الوضوح والمباشرة «العدوالامبريالي الأول» الذي يتوجب على المبدع الانتصار عليه! رغم أن شاعراً كبيراً مثل «السياب»، أوفناناً أصيلاً مثل «جواد سليم» أو روائياً مبدعاً مثل نجيب محفوظ لا يمكن أبداً اتخاذهم نموذجاً للغموض الحالي.

يمكن في هذا السياق طرح التساؤل التالي : لماذا تخلو ثقافتنا الحديثة مما يسمى بالإبداعات الشعبية، أي الكتب والقصص المكتوبة بلغة مبسطة وموجهة الى أكبر عدد ممكن من القراء المتوسطي الثقافة؟ منذ أكثر من قرن والثقافة الغربية لم تتوقف عن انتاج هذا النوع من الكتب العاطفية والبوليسية والعلمية والخيالية المقروءة من قبل حتى المثقفين «الرهيفي والنحيفي» المستوى. نفس التساؤل يُطرح بالنسبة للفقر الشديد الذي تعاني منه الثقافة الموجهة للأطفال فنياً وأدبياً. كل هذا لأننا تعودنا تقديس «الثقافة الراقية» والاستخفاف بكل الابداعات الثقافية التي قد تهبط قليلاً الى مستوى «الشعب الجاهل»! حتى الآن لم يتطرق أحد الى سبب الانفصال الكبير بين كلمات الاغاني السائدة وكلمات القصائد الفصيحة!؟

من أجل أن يؤكد المثقف تفقهه بالثقافة الغربية، تراه انكب على التكرار التلميذي الساذج للنظريات والتيارات والمصطلحات والرموز والأسماء الأجنبية «الغربية». إن الانفتاح والاقتباس والاستلهام من الثقافة الغربية المهيمنة يمكن أن يكون أمراً طبيعياً وايجابياً، لكن المشكلة تكمن في «المركزية الطاغية» لهذه الثقافة وباعتبارها أيضاً «الممثل الشرعي الوحيد» للثقافة العالمية والأجنبية! صحيح أن هناك محاولات محدودة بدأت في سنوات السبعينات بترجمة ابداعات أمريكا اللاتينية وافريقيا، ولكن حتى هذه الترجمات لم تصلنا إلا بعد الاعتراف بها من قبل الغرب! الموسيقى الافريقية لم نكتشفها إلا من خلال الغرب، حتى أغاني «الراي» الجزائرية أتتنا عن طريق الغرب، بل إننا متخلفون بسنوات طويلة عن الغرب

في اعترافه بالثقافات الأجنبية. منذ سنوات الستينات بدأت تنتشر في الغرب تيارات بديلة تدعو للانفتاح على الروحانيات الهندية والصينية والاسلامية والعلوم «الشعبية» مثل طب الأعشاب والعلاجات الروحية وغيرها. بل إنه في بعض الدول الافريقية شكلت الحكومات لجان من المتخصصين بالطب الشعبي من أجل اختبار الأطباء الشعبيين ومنحهم اجازات العمل والاشراف على نشاطاتهم ومنع المشعوذين. في الغرب فقط عرفنا أن «علم التنجيم» هو علم «بابلي مشرقي» صميم، وأهل النهرين هم أول من أبدع هذا العلم بحكم علاقتهم اليومية مع السماء والنجوم. طبعاً هذا لا يعني اتفاقنا مع «الشعوذات» التي تمارس أحياناً بأسم هذا العلم.

مختصر القول، أن الانفتاح على الثقافة الأجنبية يعني قبل كل شيء الانفتاح على ثقافات جميع الشعوب وخصوصاً الثقافات التي تربطنا بها علاقات تاريخية وجغرافية مديدة: مثل (الثقافات الفارسية والتركية والآسيوية والافريقية بالاضافة الى ثقافات الشعوب الغربية).

إن انفصام المثقف عن مجتمعه تمثل أيضاً بالتجاهل الطاغي الذي يمارس ازاء ثقافات الجماعات السكانية والدينية والمذهبية التي يتكون منها الوطن. صحيح أن الثقافة العراقية أنجزت خطوة مهمة منذ سنوات ألا وهي الاعتراف بالثقافة الكردية وتقديمها وترجمتها الى العربية. لكن هذه الخطوة تظل ناقصة من دون الانفتاح على ثقافات جميع الأديان والمذاهب والجماعات السكانية في العراق وعموم منطقة المشرق. باسم الخوف من «إثارة الحساسيات والنعرات» تم تجنب التطرق لثقافات وميراثات الفئات الوطنية : أكراد، سنة، شيعة، سريان، صابئة، تركمان، يزيدية، فيلية، أرمن، ثم الدروز والعلوية والشركس والطوائف المسيحية وباقي التنوعات الأصيلة مثل النوبيين والزنوج في السودان والأمازيغ في بلدان المغرب. بل حتى القبائل والقرى والمدن المختلفة تستحق الاهتمام بمواريثها وتقاليدها وفنونها التي تشكل بمجملها ثقافة الوطن بأكمله. لهذا ترى مثلاً شاعرنا يمكن أن يقتبس الرموز من الأساطير الإغريقية والهندية والافريقية لكنه لم يفكر يوماً بأساطير وثقافات الجماعات التي يتآلف معها يومياً في سوح الوطن..

إن سر قوة الأنظمة الغربية لا يكمن فقط في الاقتصاد والتكنولوجيا والعسكر، بل قبل كل شيء في القدرة على دفع جميع التنوعات الثقافية للتعبير عن نفسها وبالتالي صهرها في ثقافة وطنية واحدة موحدة تمنح الانسان الثقة بالذات والحس بالأصالة والانتماء للهوية الوطنية المشتركة. الديمقراطية لا تعني فقط حرية التعبير لجميع التيارات الفكرية والسياسية، بل قبل

كل شيء حرية التعبير لجميع التنوعات الثقافية والدينية والمذهبية والسكانية بما فيها حتى المواريث العشائرية والاقليمية ضمن مبدأ مقدس يبتغي بناء ثقافة وطنية متنوعة وموحدة من خلال الاتفاق على أن اللغة الوطنية (العربية بالنسبة لنا) تظل هي اللغة الأساسية (وليست الوحيدة) المشتركة بين كل هذه التنوعات الثقافية.

نضرب مثلاً صغيراً على هذه الحالة: أليس من الغريب أن نسمع في محطات الراديو والتلفزيون في بلداننا أغاني انكليزية وفرنسية واسبانية وحتى بلغة الهونولولو، ولكننا لم نسمع أو نشاهد أغنية سريانية أو تركمانية أو أرمنية أو بربرية أو نوبية. تُعرض علينا أفلام عن طقوس وتقاليد الهنود والأفارقة وجميع الشعوب، لكننا لم نشاهد أبداً فلماً عن طقوس وتقاليد المسيحيين أو الصابئة أو اليزيدية أو الأقباط أو العلوية أو الشركس. الشيعة مثلاً لم تعرفهم التلفزيونات العربية إلا بعد أن «تفضلت» علينا المؤسسات الغربية بتصوير بعض شيعة لبنان وهم يفجون رؤوسهم بالسواطير! إنها أمثلة بسيطة عن حالة الانقطاع الثقافي والاحتقار الذاتي وفقدان القدرة على النظر الى الذات الوطنية دون الاستعاضة بالكاميرات والعيون الغربية. لماذا كل قصصنا وتمثيلياتنا وأفلامنا وقصائدنا ولوحاتنا محدودة الأماكن والأجواء والنماذج ولا تبتعد أبداً عن المركز الثقافي الاجتماعي المقرر من قبل الحكومة. لم نشاهد إلا نادراً فلما مصرياً واحداً يتحدث عن شخصية مصرية قبطية، ثم لماذا هذا الاصرار على احتقار الانسان «الصعيدي» والسخرية من لهجته في جميع الأفلام المصرية؟ ثم لماذا جميع الشخصيات من ذوي البشرة السوداء لا يمثلون الا أدوار الخدم في الأفلام المصرية. رغم أن جزءاً من الشعب المصري بأشكال افريقية. بل وصل الأمر الى حد اختيار «رجال بيض» للقيام بدور «عنتر العبسي» مثل سراج منير ثم فريد شوقي بعد تسويد بشرتهما بالسخام؟

ثانياً: إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي:

إن هذا الخلل الاستعلائي بين المثقف والمجتمع، قد يكون عاملاً أساسياً في فشل المثقف باستلهام الواقع، وبالتالي فشله بالتأثير على هذا الواقع. ديمومة الفصام العقلي بين المثقف والناس أفسح المجال للسياسي ورجل الدولة لأن يفرض سيطرته المطلقة على الواقع الوطني: دولة وشعباً وثقافة!

إن إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي تكمن في الفرق بين أساليب ونوعية رؤاهما: المثقف، إنسان البحث في متاهات الخيال والحس والتفكير وتأمل الأسمى والأجمل. أما

السياسي، فهو انسان الممارسة والدولة والحسابات والتخطيطات وقياسات موازين القوى والدفاع عن برنامج سياسي محدد للتفكير والتطبيق.

يُقال عن الجيش الوطني الحقيقي أنه القادر على أن يكون «فوق الميول والاتجاهات». المثقف يشبه العسكري في هذه الناحية، بمعنى أن المثقف الحقيقي هو المثقف المستقل، ليس لأنه فوق الميول والاتجاهات بل على العكس، لأنه الجامع الأكبر للميول والاتجاهات.. إنه ضمير الناس والوطن والحاكم المحايد بين الفرقاء. يمكن تشبيه الفرق بين السياسي والمثقف بالفرق بين النبع والنهر. السياسي مهما كان واسع الطموح وذو برنامج شمولي فانه بطبيعته يبقى يمثل نبعاً ونهيراً يصب مع باقي الروافد الوطنية في نهر الثقافة الوطنية والانسانية. التيارات السياسية ما هي إلا نهيرات تصب في نهر الثقافة الكبير. والمثقف مهما التزم بتيار معين فانه بطبعه لن يكون مثقفاً مبدعاً ان لم يكن رافداً وطنياً كبيراً يصب بدوره في بحر الثقافة الانسانية والكونية.

هذا الاختلاف بين السياسي والمثقف ليس اختلافاً تناقضياً، بل هو اختلاف تكاملي، لأنهما طرفان متكاملان في معادلة الوطن والانسان، ويفترض أنهما يشتركان في مسؤولية ديمومة الحياة وتحسينها وتجميلها. النظام الاجتماعي السياسي الأمثل هو الذي يتعاون فيه المثقفون والسياسيون بصورة تسمح لكل منهما أن يحافظ على دوره المطلوب : أن يحاول السياسي دفع المثقف الى المشاركة أكثر في تطوير الواقع وبرامج الاصلاح الاجتماعي. بنفس الوقت فإن المثقف يحاول أن يدفع السياسي للتخفيف من حدة «حزبيته» وأن يكون أكثر جمالية وإنسانية وشمولية.

كثيراً ما يواجه المثقف بمسألة «الالتزام» بقضية الشعب والدولة، ولكن لا أحد يواجه السياسي بمسألة «الالتزام» بقضية جمالية الانسان وخياله وشموليته الروحية! ان هذا التخلخل في العلاقة بين المثقف والسياسي أدى الى الفهم الضيق لمعنى «الالتزام»، وبالتالي دفع المثقفين الى التمزق بين موقفين متعارضين تماماً :

ـ البعض فهم «الالتزام»، بالمعنى الحزبي والخضوع الفكري والإبداعي للقائد السياسي دولة أوحزباً بحيث يغدو المثقف مفسراً وإعلامياً للبرنامج السياسي الذي يفرضه رجل الحزب والدولة. يغصب المثقف نفسه على حصر عالمه الشامل والمتنوع في رافد سياسي مقنن فتتقلص مسافات الابداع والنقد والتفكير الى حدود الآيديولوجية والبرنامج التعبوي السياسي.

ـ البعض الآخر تمرد على «الالتزام» فلجأ الى نقيضه، أي الى الـ «لاإلتزام». حيث يسود الاعتقاد بأن السياسي نقيض للانساني والثقافي وبالتالي يتوجب الترفع عن جميع تفاصيل الواقع اليومي وتجنب القضايا الاجتماعية والسياسية المباشرة واللجوء للغموض والفذلكة الاستعلائية.

بسبب هذه العلاقة المشوهة ظلت الحياة السياسية في العراق مثل الكثير من البلدان العربية تفتقر الى الابداع التنظيري والبحث الموضوعي في الواقع السياسي والاجتماعي والفكري العراقي. الحركات السياسية والدولة ترفض المثقف الذي يتدخل مباشرة في تحليل الواقع، لأنها تفضل المثقف «الشَّعّار» السهل الذي يمنح دون اعتراض وتمنع ويمارس دور المفسر والمزوق والطبال. أما المثقف الآخر «المستقل» فقد فضل تجنب المواجهة (ودوخة الرأس) بأمور لا تقوده إلا الى الاضطهاد والعذاب، فالتجأ الى مزاولة الابداعات الروحية التي لا تمس مباشرة الحياة الاجتماعية والسياسية. أبسط مثال على هذه الحال أنه حتى الآن ورغم الألوف المؤلفة من المثقفين والسياسيين العراقيين المتواجدين في الخارج، فاننا لا نمتلك حتى الآن أية دار نشر أومؤسسة أومجلة فكرية سياسية خاصة بالمثقفين منفتحة على جميع التيارات وتعني بصورة مستقلة وتفصيلية بدراسة الوضع في العراق! لا السياسيون يرغبون بذلك، خوفاً من فقدانهم سيطرة مفاهيمهم وتنظيراتهم على الوضع والقرار العراقي؛ ولا المثقفون يجرأون على كسر هيمنة الأحزاب، وولوج الواقع الاجتماعي والوطني وفرض مفاهيم ثقافية شاملة وعميقة ومتجددة على الخطاب السياسي التبسيطي والمكرر.

ثالثاً: إشكالية العلاقة بين المثقف والديني :

كلنا نتذكر، نحن الأجيال الشابة من المثقفين «الثوريين» كيف كنا نستخف بتقاليد أهالينا وشعائرهم عندما يؤدون الصلاة والصوم أو يمارسون طقوس عاشوراء. بل كنا حتى نستخف بتراثهم الأدبي والأسطوري وحكايات ألف ليلة وليلة. لأننا أخذنا «العلمانية» من ذيلها ولم نفهمها إلا على طريقة الثورة الفرنسية والثورة الروسية، أي «نبذ الدين وتجاهله»! لم ندرك أن أوربا لم تصل الى ما وصلت اليه الآن إلا بعد قرون من الابداعات الفكرية التي لم تترك ذرة واحدة من التراث الديني إلا وتطرقت اليها وناقشتها ونبشت في مجاهيلها. لا زال حتى الآن التراث الديني يشكل جزءاً مهماً من الإبداعات الثقافية والأكاديمية بجميع تياراتها المختلفة. بل وصلت «التخمة» بالاوربيين بحيث أنهم راحوا يدرسون تراثنا الاسلامي وقبل الاسلامي وأبدعوا به وراحوا يعلموننا إياه في جامعاتهم!

إن الخلل في العلاقة بين المثقف والواقع الشعبي، ثم بين المثقف والسياسي، مرتبط أساساً بموقف المثقف إزاء الدين. وصل الأمر الى حد تناسي أي علاقة بين الدين والثقافة، باعتبار الدين مسألة تقليدية «متخلفة» وهو معني بشؤون الماضي واهتمامات الشعب «البسيط». أما الثقافة فهي شأن معاصر ونخبوي ولا تهتم إلا بأمور المستقبل السوريالية والدادائية والوجودية والماركسية والليبرالية والبنيوية والأبستمولوجية والسكسيولوجية، وهلمّ جرا. غدا من الطبيعي اعتبار أمور الفقه ونصوص التراث وتواريخ الأنبياء والأولياء والطقوس والحكايات كلها من الأمور الشعبية التي تقع خارج دائرة الثقافة والإبداع. من المعتاد الكلام عن «التعصب الديني»، لكن لا أحد يتكلم عن «التعصب الحداثي» الذي يتجاهل كل ما هو تراثي وديني وشعبي باعتباره متخلفاً وخرافياً!

إن ابتعاد المثقفين عن «المجال الديني» أعاق تطور الدين وتحديثه على عكس ما جرى في أوربا. لقد ظل الدين معزولاً في التكايا والجوامع والمؤسسات الفقهية المغلقة ولم يتخلص من إرث الحقبة العثمانية المظلمة التي قضت على الميراث المزدهر للعصرين الأموي والعباسي. إن الاجتياح السلفي الحالي يعود أساساً الى تخلف ثقافتنا عن إنجاز المهمة التاريخية الكبرى: «تطوير الدين وتحديثه»، أي صنع الأساس الأول لتطوير وعي المجتمع والدولة وخلق هوية ثقافية وطنية قادرة على منح الانسان الثقة بالذات بلا توتر ولا شعور بالنقص إزاء الحداثة القادمة من الغرب. إن الحالة الانفصامية بين الديني والثقافي، ليس المثقف وحده هو المسؤول عنها، بل كذلك رجل الدين. بالاضافة الى الترفع الذي يبديه المثقفون هناك أيضاً ضيق الأفق والانغلاق الذي أبداه الفقهاء والمثقفون الدينيون إزاء كل ما هو حداثي و«علماني» وداع الى التجديد، حتى وصل بهم الأمر الى معاداة كل ما هو أدبي وفني باعتباره مناقضاً للدّين! نتيجة هذا لم يفكر أحد أن الدين بحد ذاته ثقافة، ورجل الدين هو رجل مثقف قبل أي شيء وكل ما في الأمر أن ثقافته متخصصة بالأمور الدينية والفقهية والتاريخية.

مشكلة المثقفين الدينيين أنهم بغالبيتهم تابعون للمؤسسات الرسمية الدينية (سنية أو شيعية أو مسيحية، وغيرها). في العقود الأخيرة بدأ المثقفون الاسلاميون ينضوون تحت راية الأحزاب الدينية. وفي كلتي الحالتين لا يزال هؤلاء يعانون مثل المثقفين العصريين من التبعية للمؤسسة الرسمية والحزبية، بالاضافة الى ديمومة عزلتهم وتأخرهم عن التعامل مع مواضيع العصر وأفكاره.

إن تجاهل الثقافة الحديثة للمجال الديني أعاقها عن إمكانية ضخ الاسلام بالمعارف والعلوم والمفاهيم الجديدة. لقد فشلنا حتى بإعادة العنفوان الحضاري الأول للاسلام المزدهر بما لا

يحصى من التيارات الفقهية والفلسفية والصوفية بالاضافة الى التعايش مع الأديان والمذاهب المختلفة. يكفي القول مثلاً، أن مذهب «المرجئة» الذي ساد العصر الأموي قد سبق بقرون مفهوم «العلمانية» الغربية: أن الانسان يحاسب فقط على أعماله ازاء المجتمع، أما بالنسبة لإيمانه الديني فان محاسبته تعود الى الله و «ترجأ» أي تؤجل الى الآخرة حيث يوم الحساب.

على كل حال، يبدو أنه منذ الثمانينات بدأت الثقافة الحديثة تهتم بالاقتراب من المجال الديني. ان الاجتياح السلفي الحالي وما يطلق عليه بـ «الصحوة الاسلامية» رغم تطرفه ومغالاته وتكفيره للمجتمع، إلا أنه ساهم بخلق حالة ايجابية مفيدة على المدى البعيد: إدراك الكثير من المثقفين خطأ تجاهلهم لأهمية الدين، وبالتالي ضرورة الاهتمام بالمجال الديني لضخه بالدراسات والنقاشات والمعارف والمفاهيم العصرية. وهذا هو أملنا الوحيد بإمكانية خلق «تيار اسلامي معتدل» منفتح على العصر والحداثة ويؤمن بالتعددية السياسية والفكرية والدينية على نمط «التيار الديمقراطي المسيحي» الموجود في أوربا، رغم الاختلاف الكبير بين الحالتين.

المثقف والتاريخ

من أول الحلول الممكنة لتخطي هذه الإشكالية المزمنة، أن يتخلص المثقف العراقي والمشرقي (والعربي عموماً) من إحساسه الدائم بكونه ضحية للأنظمة الجائرة والمجتمع المتخلف. صحيح أن الأنظمة جائرة وصحيح أن المجتمع متخلف، ولكن الصحيح أيضاً أن المثقف يمكن أيضاً أن يكون جائراً ومتخلفاً بانقطاعه عن أصالته الذاتية والوطنية ونظرته النرجسية الاستعلائية. بمعنى أن الحس النقدي الذي يتحلى به المثقف ازاء الدولة والمجتمع والدين لن يكون مفيداً وايجابياً إلا بإكماله أيضاً بالحس النقدي ازاء ذات المثقف ومدى دوره في تخلف الدولة والمجتمع والدين وعموم الثقافة الوطنية. ان حلقة تخلف الدولة والمجتمع والدين لن تكتمل إلا بتخلف المثقف ومساهمته في تشكيل الوعي الوطني المتخلف الذي يبرر لمثل هذه الطغم الاستبدادية أن تستحوذ على الدولة والوطن بأكمله.

ثم تأتي بعد ذلك أهمية اتخاذ الخطوات اللازمة لإصلاح العلاقة بين المثقف والسياسي ثم بين المثقف والديني. نعتقد أن الوسيط الوحيد القادر على اجراء الحوار بين المثقف والسياسي، هو «المثقف السياسي» أو «السياسي المثقف» من أمثال «لينين ومحمد باقر الصدر وانطون

سعادة» وغيرهم. وهذا يعني أن على كل حركة سياسية أن تضع في حسبانها الاشراك المباشر للمثقفين السياسيين في قيادة الحركة والتنظير لها. وبنفس الوقت أن يلعب هؤلاء المثقفون الحزبيون دوراً وسيطاً بين الحركة السياسية والحركة الثقافية. أي بصورة أوضح أن تكف الحركات السياسية عن جعل المثقف المرتبط بها كداعية واعلامي للتأثير على المثقفين وجرهم الى مواقعها. بل الأمر يجب أن يكون العكس، أي أن يلعب المثقف الحزبي دوراً أساسياً في نقل آراء المثقفين للتأثير على الحركة السياسية وضخها بالخطاب الثقافي الشمولي والمستقل.

نفس الأمر ينطبق على مسألة العلاقة بين المثقف والدين، فيتم الحوار وتبادل التأثير من خلال «المثقف الديني» الذي يجب أن يلعب دوراً أكثر استقلالية وشمولية في تكوين ثقافة دينية منفتحة على الثقافة العصرية ومؤثرة على البرنامج السياسي للحركات الدينية. وبالتالي تكوين ثقافة دينية منفتحة على الفكر المدني (أي العلماني أو الحديث)، وهذا سيؤدي بالتأكيد الى تكوين ثقافة مدنية وطنية منفتحة وممثلة لجميع التنوعات الدينية الاسلامية السنية والشيعية وكذلك المسيحية وجميع الأديان والمذاهب والجماعات الثقافية والسكانية في العراق ومنطقة المشرق وعموم العالم العربي.

يمكننا هنا أن ننوه الى مسألة قد تبدو ثانوية، لكنها بالحقيقة مهمة وتلعب دوراً في تعميق الأصالة والشمولية لدى المثقف، ونعني بذلك: «الثقافة التاريخية». الملاحظ وحسب اطلاعاتنا الشخصية أن أغلب مثقفينا تخلو مكتباتهم وقراءاتهم من الكتب المعنية بسرد تاريخ الشعوب والأوطان. تجد الكتب المتنوعة في مجالات الأدب والفن والفكر والتراث، وهي طبعاً مجالات ثقافية أساسية لا يمكن الاستخفاف بأهميتها. لكن تبقى قراءة «كتب التاريخ» شرطاً أولياً لاكتمال المعرفة خصوصاً بالنسبة لمثقفي الشعوب التي تعاني من الانمساخ التاريخي وتمزق الهوية الوطنية. ربما قلة اهتمام مثقفينا بالتاريخ تعود أيضاً لذلك الانقطاع والانمساخ الثقافي الذي فرض على ثقافتنا باسم الحداثة والمستقبلية والنقمة على الماضي «الظلامي المتخلف». لهذا ترى مثقفينا عموماً يميلون الى القراءات الأدبية والفنية والفكرية والسياسية، ثم البعض يضيف الى ذلك الكتب التراثية المعروفة بسبب أهميتها اللغوية والشعرية. أما كتب التاريخ فهي الأقل والأندر عموماً.

إن قراءة التاريخ الوطني والعالمي ستمنح مثقفينا العمق الثقافي الوطني والانساني وتجعلهم قادرين على الإمساك بالمعلومات والأدلة والأمثلة التي تغني الأصالة الذاتية وتدعم الثقة

بديمومة الهوية الحضارية. ان قراءة التاريخ تكشف المعلومات عن تفاصيل الجماعات الدينية والمذهبية والسكانية المتنوعة التي يتكون منها الوطن وأدوار هذه الجماعات في صنع تاريخ المنطقة. إن قراءة التاريخ تعني بكل بساطة قراءة تاريخ جميع المعارف والانجازات الانسانية في مجالات الأدب والفن والفكر والاجتماع والسياسة والدين والحروب والعلوم والتقنيات وغيرها. قد لا نغالي لو جزمنا أن «قراءة التاريخ» ، هي الشرط الأول لتكوين المثقف الانساني الشمولي والأصيل ذاتياً ووطنياً.

باختصار نقول : إن الشعوب التي لا تقرأ التاريخ لا يمكنها أبداً أن تساهم بصنع التاريخ. إن فهم الحاضر واستشراف المستقبل لن يتما إلا بدراسة الماضي واستيعاب معانيه ، وهنا يكمن سر قوة الحضارة الغربية ودهاء الحركة الصهيونية ، لأنهما هضما جيداً التاريخ ثم تمكنا من السيطرة عليه.

حول المرأة، والفلسفة الصينية «التاوية»

كان من المفروض على الأقل تخصيص فصلٍ كاملٍ عن قضية المرأة، لأهميتها الحاسمة في بناء هوية أي شعب ووطن، لكن شحة الوقت وطبيعة الكتاب فرضت الاقتصاد بهذا الموضوع.

باختصار، إن موضوع المرأة هو أكثر المواضيع التي تستحق التعامل معها بالاعتماد على الفلسفة الصينية «التاوية». بالحقيقة أن هذه ليست فلسفة بالمعنى الشائع بقدر ماهي «طريقة حياة»، إذ لا تتعارض مع أي دين أومعتقد. إنها تعتبر الحياة والوجود بأجمعه يتكون من جانبين متكاملين: (ين) و (يان) أي (مؤنث) و (مذكر)، ويمكن الترجمة أيضاً بـ (منفعل) و(فعّال). بمعنى أن كل شيء في الوجود إما (مؤنث) أو (مذكر).. نعم كل شيء: البشر والحيوان والنبات وجميع المواد وأعضاء الجسد والسماء والأرض وحتى الغذاء والدواء. مثلاً، النهار مذكر والليل مؤنث، الحر مذكر والبرد مؤنث، المالح مذكر والحلو مؤنث، الحديد مذكر والخشب مؤنث.. الخ. كل الوجود (ثنائي) لكن هذه الثنائية التاوية تختلف تماماً عن (ثنائيتنا التناقضية) أي (ثنائية الأحسن والأسوأ) السائدة لدى شعوب ضفتي البحر المتوسط في أوربا والعالم العربي. الثنائية التاوية هي (الثنائية الانسجامية) حيث كل طرف لا يكتمل إلا بالطرف الآخر.. الخير يكمن بالانسجام والتكامل بين الثنائيات، والشر يكمن في تخلخل الانسجام والتوازن بين هذه الثنائيات.

بناءاً على هذا فإن أي مجتمع لن يبلغ الاستقرار والأزدهار إلا بتوازن ثنائياته وتكاملها: الدولة والمجتمع، القوى السياسية والقوى المدنية، الدين والعلم، الانتاج والابتهاج، المدينة والريف.. ومن بين كل ثنائيات المجتمع، فإن ثنائية (المرأة والرجل) هي الأكثر أهمية على الإطلاق، في جميع النواحي البيولوجية والروحية والتربوية والاقتصادية والسياسية. دائماً المجتمعات التي تعيش حالة عنف وتوتر وقمع هي المجتمعات التي يبلغ فيها تخلخل التوازن بين الرجل والمرأة حده الأقصى، حيث السيطرة الحاسمة لعناصر الذكورة ورموزها: الفحولة والأبوة والقوة والعمل والعقل (الخالي من العواطف والضمير) والسلاح والحديد والجفاف والصراخ والفردية. كل هذه العناصر (الذكورية) هي ضرورية ومفيدة للمجتمع في حالة التخفيف من سيطرتها بموازنتها مع عناصر الأنوثة: الأمومة والليونة والراحة والعواطف والخضرة والرطوبة والهدوء والروح الجماعية.

لهذا فان المجتمع الأمثل هو المجتمع الذي يتمكن من تحقيق التوازن بين مكوناته الذكورية والأنوثية ، في الدولة والادارة والقانون والدين والثقافة والتربية وجميع مكونات الحياة المادية والروحية.

حكاية المرأة الغربية

لو تفحصنا بعض الشيء التجربة الغربية بشقيها الماركسي والليبرالي ، فاننا نلاحظ أن مشكلة المرأة تكمن في غياب التوازن بين الأنوثة والذكورة في الدولة والمجتمع ، رغم كل الادعاءات بالحرية والمساواة بين الجنسين. المشكلة أنهم تصوروا أن «المساواة» بين الرجل والمرأة تعني «التشابه» وليس «التوازن والانسجام». حكاية المرأة الغربية هي حكاية كل الجماعات الضعيفة الخاضعة : تتوهم بأن التحرر من عبودية الأسياد يكمن بتقليدهم والتشبه بهم. فتراها رغم التحرر من العبودية فانها تظل تعيش في عبودية أقسى وأعنف هي عبودية الروح والعقل وانمساخ الأنا والاحتقار الدائم للذات لأنها لن تستطيع أبداً بلوغ مستوى السادة السابقين. حكاية المرأة تشبه حكاية بعض الأفارقة الذين تصوروا أن مساواتهم مع المستعمرين تكمن بتحولهم من اللون الأسود الى الأبيض ! وهذا بالضبط ما عملته نخبنا الحداثية والتقدمية التي تصورت بأن تطورنا ومساواتنا مع الغرب يكمن بتشبهنا به وتشابهنا معه ، والنتيجة أنهم حولونا الى أشبه بحيوانات سيرك بعد أن نجحت بالتخلص من سيدها «الغربي» راحت تتصارع بوحشية فيما بينها لأنها تريد تقليد سلوك وعادات سيدها السابق وتتشبه به.

هكذا حال المرأة حسب الطريقة الغربية ، إنها منذ أجيال تمضي وقتها لكي تستطيع أكثر وأكثر أن تنمسخ الى رجل : لكي تتمرد على جدار البيت وعبودية تربية الأطفال والخضوع الاقتصادي للرجل ، تراها تمضي نهارها في سوق العمل والانتاج محرومة من بهجة الأمومة وهي بالكاد تقتنص الساعة لكي تمضي بعض الوقت مع أبنائها المعقدين بسبب العزلة والحرمان. وفوق كل هذا فشلت حتى بالاحتفاظ (برجلها) الذي رغم تشدقه بالحرية والمساواة إلا أنه يبقى رجلاً يحلم أن يعود الى بيته بعد كفاح العمل فيجد امرأته تنتظره بزينتها وعطرها وقد أعدت له المائدة وهيأت الأطفال ورتبت الفراش. لهذا تجد أن نسبة الطلاق في أوربا تبلغ أحياناً نصف مستوى حالات الزواج ، ونسبة النساء اللواتي يعشن وحدهن بعد خيباتهم المُرّة مع الرجل تفوق نسبة المتزوجات ، والأطفال الذين يعيشون مع أمهات بلا رجال تبلغ نسبتهم الثلث.

المشكلة ليست بحصول المرأة على حق العمل وتحررها الاقتصادي، بل بتصوير هذا الحق على أنه واجب وشرط أساسي لتحررها ومساواتها بالرجل. الآن فقط بدأت بعض الحركات النسوية تنتبه الى هذه الحقيقة القاسية وتعترف بأن المرأة تبقى تتميز عن الرجل بأمور كثيرة وأهمها بأن المرأة هي التي تحمل وتنجب وترضع وتربي الأطفال، وفي الأمومة تكمن لذتها وقوة شخصيتها وشعورها بحريتها. لكن المشكلة تكمن بعدم اعتراف الدولة والمجتمع بأن الأمومة وتربية الأطفال هو أيضاً عمل «اقتصادي» يفوق انتاجية وفائدة للدولة والوطن جميع الأعمال الانتاجية الأخرى، لأنه ينتج أهم «سلعة» في الوجود، ألا وهي الانسان. بناءاً على هذا فانه على الدولة والمجتمع أن تعترف للمرأة بهذا العمل «الانتاجي» وتمنحها حقوقاً مثل حقوق العاملين: المرتب والاجازة والضمان الاجتماعي وجميع الحقوق الأخرى.

أما المشكلة الثانية المرتبطة بالأمومة والعمل فهي مشكلة تحول المرأة الى سلعة مهمتها الإثارة وجذب الرجل الى عوالم فنطازية تتجاوز بإباحيتها عوالم ألف ليلة وليلة. يبدو أن مهمة الإثارة هذه أتت لتكمل المهمة الأولى الهادفة الى تدمير الحياة العائلية: من ناحية سيسأم الرجل زوجته التي تهمل جمالها وأمور البيت بسبب انشغالها بالعمل خارج الدار، ومن ناحية ثانية فان هناك ما يدفع الرجل لكي يسأم من زوجته بأسرع وقت حتى لو كانت ملكة جمال الكون: خلال كل الوقت وفي جميع الأماكن يجب أن يظل الرجل معرضاً للإثارة والانشداد نحو نساء يفقن الحوريات بفتنتهن ليجعلنه لا يكف عن مقارنتهن بزوجته ولا يمكنه أبداً تجاهلهن لأنهن منشورات على بوسترات الحيطان وفي الصحف والتلفزيون والسينما والكتب.. أما في الشوارع والمحلات العامة فحدِّث ولا حرج. كم هي معروفة تلك الطرفة التي تتحدث عن الرجال الذين تنط عيونهم شبقاً لمرأى أفخاذ وأرداف نساء ساحرات في الطريق، لكنهم سرعان ما يصابون بالخيبة بعد اكتشافهم بأن تلك النساء هن زوجاتهم اللواتي لا يثرنهم في البيت، إلا أن الثياب الداعرة في الشارع قد أحالتهن الى بغايا واعدات.

إن شعوب الغرب (ونحن وراءهم طبعاً) تعاني من سيطرة تلك الأجهزة الشيطانية الجبارة التي تمتلك وسائل الأعلام والثقافة وتسخرها لخدمة غايات لا انسانية لجني الأرباح وتحويل البشر الى أسراب من الجراد المستهلك حتى للقاذورات المغلفة بورق الألمنيوم الملون. لقد نجحت وسائل الاثارة الجهنمية بتدمير أقصى حدود المعقول في الهيجان الشبقي، إذ بلغت

درجة الكبت لدى بعض الرجال أنهم راحوا يبتدعون طرقاً خارقة من أجل الحصول على المتعة الجسدية : اختطاف الأطفال واغتصابهم، بل هناك رواج للمجلات والأفلام التي تظهر ممارسة الجنس مع الأطفال الرضع!!

بدل المساواة والتوازن تحولت العلاقة بين المرأة والرجل الى لعبة قاسية ومأساوية كل طرف يحاول فيها أن ينتقم من الطرف الآخر بطريقته الخاصة : الرجل بواسطة الاحتقار والعنف والاغتصاب والابتزاز الجنسي، والمرأة بواسطة الاثارة والتمنع وتهييج العواطف.

العشيقة والعاملة والأم الحنون

هناك في أوربا عموماً زيادة عدد الانتحار، وخصوصاً بين الشباب بين سن (15-24) حيث يعتبر الانتحار السبب الثاني للوفاة بعد السبب الأول المتمثل بحوادث الطرق! أكثر خمس دول بعدد المنتحرين هي : هنغاريا والنمسا والدانمارك وفنلندا وسويسرا. لوحظ أن عدد محاولات الانتحار بين النساء، وخصوصاً من الشابات يفوق عدد الذكور عدة أضعاف قد تبلغ ثمانية مرات وأكثر. انه فرق هائل يدعو الى التساؤل. إن هذا الرقم يؤكد أن أسباب الانتحار ليست شاملة لكلي الجنسين. والواضح أن المرأة، وخصوصاً الشابة، رغم كل مظاهر الخلاعة والتبجح السينمائي، فهي تعاني أضعاف أضعاف ما يعانيه الشاب. مشكلة الفتاة في أوربا أنه مطلوب منها الوصول لثلاثة أهداف بآن واحد :

1 ـ أن تكون جميلة ومثيرة وحسب أكثر القياسات صرامة من ناحية الطول والوزن. إذا نقص كيلو من جسمها أو زاد فهذه كارثة. يجب عليها ليل نهار أن تراعي طولها ووزنها ومكياجها وقصة شعرها وتناسق أعضائها. هناك عشرات الصحف والمجلات في كل لغة متخصصة بجمال المرأة وريجيمها ورياضتها ومواد المكياج العجيبة الغريبة مع عارضات أزياء نحيفات مثل جياع العالم الثالث. في كل مجلة وجريدة تجد عدة اعلانات كل منها يدعي اكتشاف طريقة سحرية بتخفيف الوزن، وكلها تحتوي صوراً لنساء أشد حسناً من الملائكة. وطبعاً في جميع اعلانات الريجيم لن تجد أبداً صورة واحدة لرجل لأن جمال الجسد من واجبات المرأة وليس الرجل! هناك اعلانات عن أجهزة كهربائية متنوعة، بعضها خاص بتنحيف الأفخاذ، وأخرى لتنحيف الأرداف، وأخرى لتنحيف البطن والخصر، وأخرى للأثداء. أما المرأة التي لا تريد أن تتعب نفسها بتمارين وأجهزة معقدة، فهناك العمليات

الجراحية التي تبدل كل شكلها وتقطع كل الأجزاء الزائدة من جسمها وتضع لها بدل اللحم والدم مادة السلكوين : لتضخيم الشفاه والأثداء والارداف !

2 ـ بالاضافة الى واجب امتلاك الجمال والطول والنحافة والاثارة الدائمة ، فانه بنفس الوقت على الشابة أن تكون أيضاً متفوقة بدراستها طامحة للنجاح والحصول على أفضل المعدلات لأن الجمال والجسد وحدهما غير كافيين بل يجب أن يضاف اليهما الشهادة الدراسية والعمل المرموق !

3 ـ يضاف الى كل هذا ، أنه لا يكفي أن تكون الشابة جميلة ومثيرة ومرموقة بالدراسة بل يتوجب عليها منذ سن المراهقة أن تكون مؤهلة لكي تصبح حبيبة ساحرة وزوجة مستقبلية مخلصة وأم خصبة حنونة. والفتاة التي لا تجد أمير أحلامها الذي تمارس معه تمثيلية الحب الناري أمام الأصحاب وبشكل ظاهري فانها ستحس بنفسها معقدة وخايبة وتتعرض للسخرية والاستغراب لأنها غير قادرة على هذه المهمة لأسباب نفسية أو جمالية !

كم صعب ونادر جداً امتلاك القدرة على تحقيق هذه المهمات الثلاثة : جميلة ومهيجة مثل بريجيب باردو أو مادونا... ذكية وجدية مثل مدام كوري أو مسز تاتشر.. حبيبة وأم حنونة مثل مريم العذراء والأم تيريزا. وعندما تفشل الشابة بالتوفيق بين هذه المهمات الصعبة فانها إما أن تلجأ الى الانتحار أو الإدمان على المخدرات أو الدخول في سوق البغاء ، أو أن الحظ يحالفها وتكون واقعية وتجد من يتفهمها ويساندها فتقرر تنفيذ واحدة من هذه المهمات الثلاثة ، ولكن بعد معاناة وخيبات وجروح نفسية منتشرة في أنحاء الروح تظهر آثارها في الحياة الاجتماعية والعلاقة مع الرجل.

❖ ❖ ❖

المقصود من كل هذا القول بأن حصول المرأة على حريتها ومساواتها مع الرجل ليس بالسهولة التي أوهمنا بها الماركسيون والليبراليون : يكفي أن تتحرر المرأة من عبودية البيت والتبعية الاقتصادية للرجل حتى تبلغ حريتها ومساواتها. لا إن واقع العلاقة بين الرجل والمرأة وخصوصياتهما البيولوجية والروحية والتاريخية أكثر تعقيداً بكثير مما يدعيه هؤلاء الحداثيون. في أكثر الأحزاب الشيوعية شيوعية وعلمانية لا تتجاوز نسبة النساء في القيادة في أحسن

الأحوال الـ (10٪) وفي أكثر البرلمانات الغربية تحرراً ومساواة لا تتجاوز نسبة النساء الـ (15٪)(*).

لا نقول هذا لكي نبرر بقاء المرأة على خضوعها للرجل وحجرها في البيت بحجة أنه ليس هناك حل. إن فشل الحداثة الغربية بخلق التوازن بين المرأة والرجل، لا يبرر أبداً الدفاع عن الطروحات الدينية التي تحول الرجل الى «حارس» مسكين يمضي ليله ونهاره بتحمل عذابات هوسه الجنوني على «عفة وطهارة» ذلك «السجين الخطر» المسمى «امرأة»! إن الاطلاع على محصلتي التجربة الغربية والتجربة الدينية المحافظة ورغم تغليف الحقيقة بالادعاءات الفضفاضة المتنوعة، فإن التجربتين تتفقان على «تقديس الفحولة»، فبينما العلماني يجهد بدفع «المرأة» لكي تنمسخ الى «فحل»، فان المتدين يجهد لكي «تستحيل» المرأة الى «ملاك» طاهر مهمتها الوحيدة أن تثبت للرجل بأنه ما زال «فحلاً» رغم كل «اخصاءات» الحياة وجبابرة الأرض.

ان فشل الحركات الانسانية والاصلاحية حتى الآن بخلق النظام القادر على خلق التوازن بين المرأة والرجل هو السبب الأول والأكبر بديمومة آلام البشرية وتفاقم خيباتها وصراعاتها وسيطرة الفحولة والعنف وشراهة الانتاج وتدمير الطبيعة واكتساح التقنيات الحديدية لأنوثة الأرض وتحويل البشر الى عقول شيطانية جامحة همها الأول والأخير هو الربح ثم الربح ثم الربح!

---

* يورد غارودي في كتابه «في سبيل ارتقاء المرأة» ص10 ، الأرقام التالية :

«في فرنسا أقل من 4٪ من النساء العاملات يتوصلن الى مراكز ضمن الملاكات العليا و 7٪ فقط من رؤساء المشاريع هم نساء (وأقل من ذلك بكثير في المشاريع الكبرى) . وبالمقابل فأن النساء يمثلن 70٪ من موظفي المكاتب و 80٪ من مستخدمي المصالح و65٪ من العمال المأجورين . وبالأجمال فأن أجور النساء بمجموعها 30٪ أقل من أجور الذكور وظروف عمل سيئة ومهام تكرارية وتقييم اجتماعي يعادل الصفر» .

ملحق

عن اشتراك المرأة في إدارة الدولة

نورد هذا المثال عن الجدل الدائر في الأردن حول تخصيص (حصة اجبارية ـ كوتا) في البرلمان الأردني للمرأة ـ لا نخفي بأننا مع نظام (الكوتا) هذا، لأن هنالك آلاف الموانع الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تعاكس المرأة في حريتها السياسية والانتخابية، إذن من حقها الحصول على امتيازات قانونية وتشجيعية (كوتا) لتسهيل وصولها الى البرلمان وإدارات الدولة. ان المعارضين لهذا القانون بحجة أنه يهين المرأة ويعتبرها أقل قدرة من الرجل، أشبه بالذين يعارضون قوانين (محو الأمية والدراسة الالزامية) لأنها تهين المجتمع وتعتبره غير قادر على تعليم نفسه من دون الزام قانوني! ونشير الى أن مشكلة (الكوتا) مطروحة الآن للنقاش كذلك في المجتمعات الغربية، لأن مشكلة اشتراك المرأة في السياسة لا زالت قائمة.

كوتا نسائية في الإنتخابات
تثير جدلاً في الأردن

الجدل الحاد الذي تشهده الساحة الأردنية حالياً مع اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية انعكس على كافة الأطراف السياسية وطبقات المجتمع الأردني .

والحديث عن تخصيص (كوتا) نسائية ضمن التعديلات المنتظرة على قانون الانتخابات يلقي بظلاله على كافة التجمعات في الأردن النسائية منها بشكل خاص كون المرأة الأردنية هي المعنية بالدرجة الأولى بهذا التعديل إذا حصل.

ولم تنجح محاولات المرأة الأردنية لاختراق البرلمان الا في الانتخابات التي جرت عام 1993 التي أوصلت النائبة توجان فيصل الى البرلمان.

ومن المعروف أن تلك الانتخابات لم تشهد سوى ترشيح ثلاث سيدات فقط لخوض الانتخابات كانت توجان إحداهن، وعزا المراقبون عزوف المرأة الأردنية عن خوض التجربة من جديد للخسارة القاسية التي منيت بها (16) سيدة خضن الانتخابات البرلمانية التي جرت في عام 1989 وهي أول انتخابات برلمانية تجري في الأردن بعد عودة الحياة الديمقراطية.

والآن وقبل سبعة أشهر على الموعد المحدد لإجراء الانتخابات المقررة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل انقسمت آراء وتوجهات المرأة الأردنية حول موضوع قانون الانتخاب وتخصيص كوتا للنساء ضمن التعديلات المقترحة، ورغم اتفاقهن على رفض قانون الصوت الواحد لتنافيه مع القواعد الديمقراطية، الا أن الخلاف في وجهات النظر حول تخصيص (كوتا) للنساء بدأت في الظهور بشكل علني وخاصة مع اعلان بعض السيدات عن رغبتهن في الترشيح للانتخابات المقبلة. وتقود النائبة توجان فيصل التيار الذي يرفض تخصيص (كوتا) للنساء في البرلمان وتطرح وجهات نظر ترى أنها منطقية في تعليل أسباب رفضها للكوتا. تقول توجان «أنا ضد الكوتا لأني أؤمن بالمساواة بين كافة أفراد الشعب الأردني، وتجربتي في الوصول للبرلمان أكبر دليل على أن قوة المرأة هي التي ستوصلها». ويؤيد الفيصل في هذا الاتجاه الطبيبة والصحافية هدى فاخوري التي سبق وان خاضت الانتخابات 1989 وخسرت، حيث تقول «نريد برلماناً قوياً ولا نريد للمرأة أن تصل من خلال كوتا لأن ذلك مظهر من مظاهر الضعف، لنترك المجال مفتوحاً أمام الجميع والشعب هو الذي يختار الأكفأ والأقدر سواء أكان رجلاً أو امرأة».

على الجانب الآخر يقف فريق المؤيدات للكوتا النسائية من منطلق انه لا بد من العمل بنصوص الاتفاقية الدولية الخاصة بالقضاء على كافة اشكال التمييز ضد المرأة والتي تدعو في أحد بنودها إلى تخصيص ما نسبته 30٪ للمرأة في المجالس البرلمانية. ويقود هذا الاتجاه قيادات الحركة النسائية في الأردن وحزبيات عريقات في الأحزاب اليسارية.

رئيسة اتحاد المرأة في الأردن والمحامية اللامعة أسمى خضر تقول «أنا مع الكوتا النسائية مرحلياً نظراً للفرق الشاسع بين الفرص التي أعطيت للرجل في مجتمعنا في كافة الميادين وبين الفرص التي منعت عن المرأة لأسباب اجتماعية كثيرة، واللحاق بالركب بالنسبة للمرأة في ظل تصورات مجتمعنا الحالية لا تزال صعبة لذلك لا بد من اجراءات استثنائية لمساعدة المرأة على تقليص الفارق بينها وبين الرجل في العديد من مناحي الحياة وخاصة السياسية منها، والكوتا النسائية اجراء لا بد منه في المرحلة الراهنة». الشاعرة والأديبة عائشة الخواجا الرازم كانت أول امرأة أردنية تعلن نيتها في ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة بصرف النظر عن صدور قانون يحتوي على تعديلات تنص على الكوتا أو لا وتقول «رغم قراري بترشيح نفسي للانتخابات المقبلة فاني من أشد المؤيدين لفكرة الكوتا النسائية وهناك العديد من المناصرين لي في هذا الطرح».

وتعترف الرازم أنه برغم تحفظها الشديد على النائبة توجان فيصل الا أن اداء الفيصل في البرلمان منحها الثقة كسيدة وزاد من وعي الشارع الأردني لأهمية وجود المرأة في البرلمان.

وتتوقع الرازم ان تعلن حوالي 50 سيدة اردنية ترشيح أنفسهن للانتخابات المقبلة من كافة أنحاء الأردن بما فيها مناطق الريف والبادية، وترى أن حصول المرأة على عشرة مقاعد في البرلمان المقبل انجاز عظيم للمرأة الأردنية.

اميلي نفاع احدى القيادات النسائية البارزة في الأردن ومن أقدم أعضاء الحزب الشيوعي الأردني أعلنت عزمها عن ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة وتعمل من خلال تشكيل تحالف نسائي اردني للمطالبة بتعديل قانون الانتخابات وتخصيص ما نسبته 20٪ من مقاعد البرلمان للمرأة، وتؤكد ان الكوتا النسائية اصبحت ضرورية أكثر من أي وقت مضى لأن نظرة المجتمع لأداء المرأة لا زالت دون المستوى المطلوب لذلك ليس من السهولة ايصال المرأة للبرلمان وخاصة مع وجود قانون الصوت الواحد الذي قلل من فرص الأحزاب السياسية وليس فرص المرأة فقط. وتعتقد نفاع انه لا بد من ايصال عدد كاف من النساء الى البرلمان لتشكيل قوة ضاغطة تتمكن من وضع التشريعات التي تساند المرأة وتعطيها قدراً أكبر من الحقوق.

من جريدة القدس اللندنية 2 / 5 / 1997

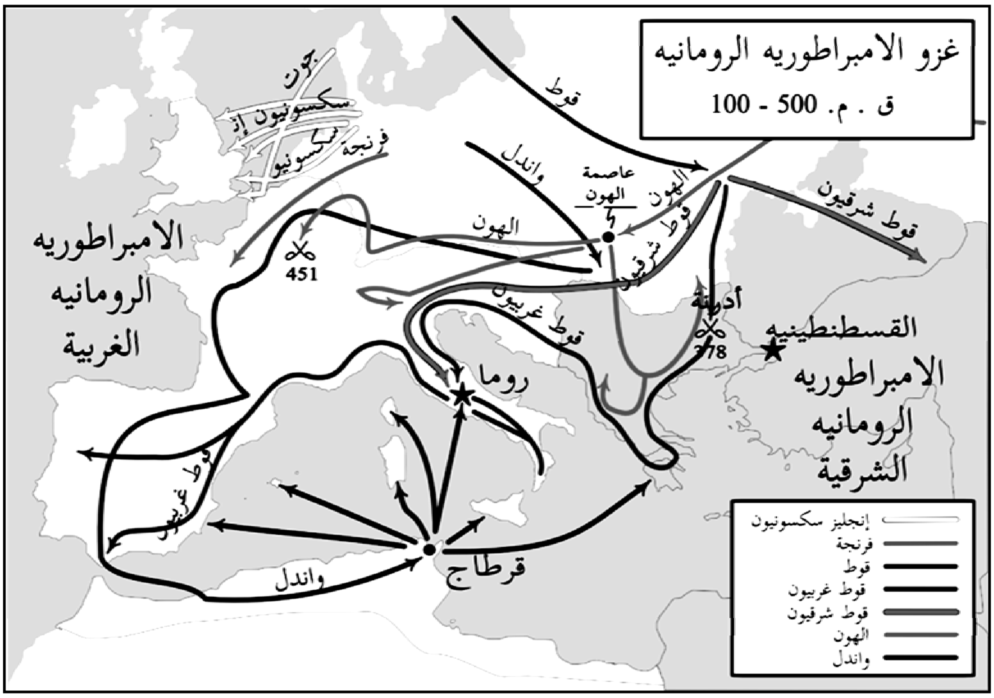

قبائل الرعاة(البدو) الجرمانية تغزو الدولة الرومانية وتدمر أوربا

مصيبة البداوة العربية، والفهم العرقي القومي للمجتمع(*)

طالعنا الكاتب (...) بدراسة على حلقتين في هذه الصحيفة (11 و 12 تشرين الثاني 1996)، بعنوان «نقد الحس النقدي عند العرب».

نشيد أولاً بالنيات الصادقة التي أبداها الكاتب خلال دراسته هذه وخشيته الطيبة من اعتبار أفكاره «هجوماً غير عادل على العقل العربي». كذلك التواضع الذي عبر عنه صراحة بقوله : «لا أدّعي أن ما سأقوله صحيح بالكامل، بل إن هذه مجرد أفكار يغلب عليها الرجحان في الوقت الحاضر. هي قابلة للتعديل والتحوير، كما أنها قابلة للمناقشة والتفنيد».

يمكننا اختصار فحوى هذه الدراسة بنقطتين أساسيتين :

---

* ان هذا الموضوع قد سبق نشره كرد على موضوع سابق في «جريدة القدس اللندنية» .

أولاً : ماهية المشكلة، وقد لخصها الكاتب بعنوان الدراسة نفسها: غياب أو ضعف الحس النقدي عند العرب. من مظاهر هذه المشكلة حسب المقال ان العرب يعانون من : «التمسك بالرأي بصرف النظر عن قيمته وجدواه دون محاولة تفهم الآراء الأخرى... وتغلب الوثوق بالرأي والحسم فيه أكثر من الشك واحتمال البدائل... والميل الى الخضوع الى النزاعات العاطفية أكثر من الميل الى المحاكمة العقلية... تمجيد السلف والتراث... القصور الهائل عن متابعة وإدراك ما يجري في عالم اليوم... فشل تطبيق الأسلوب الديمقراطي في الحكم...».

ثانياً : أسباب المشكلة، وقد طرح الكاتب فرضيته المحورية عن أسباب هذه المشكلة واختصرها بسبب واحد أساسي، وهو : «البداوة». طيلة الحلقتين تم الحديث عن هذه العلة المحورية كالتالي : «الجذور البدوية التي تتميز بها غالبية الشعب العربي التي تفرض عليها تقاليد وعادات وقيماً أخلاقية معينة من الاعتداد بالنفس والفخر وحب الغلبة... العصبية القبلية والغزو باعتبارهما من القيم الاجتماعية المستحبة لدى الأعرابي والعربي بوجه عام... عدم نجاح العربي في التحرر من قيم بداوته حتى بعد انتقاله الى مرحلة حضارية متقدمة... اننا لا نزال بدائيين في أفكارنا أو متأثرين بقيم البداوة أكثر من تأثرنا بقيم الحضارة... ان العربي بوجه عام لا يزال متمسكاً أو متأثراً بقيم وتقاليد بدائية تعود أصولها الى المجتمع البدوي المتخلف...».

الحقيقة أن تعقيبنا هذا لم تكن غايته الرد مباشرة على كاتبنا، بل لأننا وجدنا دراسته تمثل نموذجاً «للرؤية العرقية القومية» السائدة والمغطاة بصبغة «حداثية علمانية تقدمية». بمعنى واضح نقول ان هذا المنهج ليس فقط (عرقياً قومياً)، بل انه يتبنى أيضاً طروحات (الاستعلاء الغربي) على (الشعوب المتخلفة عرقياً، والشعوب المتطورة عرقياً)[1].

إن الأفكار التي رددها الكاتب عن (بداوتنا وتخلفنا) طالما تعودنا سماعها منذ أجيال وأجيال. والطريف أن أكثر من يردد هذه الاتهامات القاسية هم أنفسهم دعاة القومية الأصيلة والمؤمنين بأن عروبتنا تكمن في انحدارنا الحتمي من قبائل البادية وصولاً الى الجد الأسطوري الأكبر «يعرب وشريكيه الشهيرين قحطان وعدنان»! إن هذا يذكر بحكاية ذلك الأعرابي الذي كان يصنع ربّه من العجين ويشرع بتقديسه وتبجيله والصلاة له، ولكن حين يشح الغذاء ويشتد الجوع ينهال هذا الأعرابي على ربه المسكين ويلتهمه بدون رحمة. هكذا يفعل «عروبيونا» حينما صنعوا لنا أصولاً عربية بدوية مقدسة بدماء نقية صافية تلغي جميع

الأجناس التي استقرت في أوطاننا طيلة عشرات الآلاف من السنين ؛ لكن هؤلاء القوميين ما إن يحاصرهم الجوع الحضاري التقدمي لا يجدون غير ربهم البدوي (القحطاني العدناني) هذا لينهالوا عليه لعنة وتدميرا.

معنى تخلفنا وضعف حسّنا النقدي

ان مشكلة (ضعف الحس النقدي) لدى العرب التي تحدث عنها الكاتب هي ذاتها تصلح أن تكون فرضية تحتاج للبحث والاثبات وليس مشكلة متفق عليها كما حاول أن يصورها. يمكن الاتفاق على وجود الكثير من العيوب التي تسود المجتمعات العربية، لكن الذي يستحق التساؤل، هل أن هذه المشكلة «عربية بدوية خالصة» أم مشكلة انسانية عامة توجد لدى جميع شعوب الأرض مع الاختلاف بحدتها وبمظاهرها ووسائل التعبير عنها؟

بالامكان الاتفاق مع الكاتب في حديثه عن عيوب المجتمعات العربية لو أنه تحدث من دون الاستناد والمقارنة إلى تلك «المُثل الحضارية العليا» التي فرضتها علينا الحداثة الغربية. إن الكاتب لم يتحدث عن العرب بمنطق نقدي داخلي، بل استند مباشرة وبصورة غير مباشرة على المقارنة مع (الشعوب المتطورة التي تبنت العلم ونبذت الخرافة)، وان مشكلة العرب كما يقول بأنهم : «يتمسكون بالمعتقدات والخرافات التي كانت شائعة لدى الشعوب البدائية... ويعزون الكوارث الطبيعية أحياناً الى أسباب غيبية... ولأنهم وقعوا في الشرك الأبدي للعاجزين : اللاهوت...». ثم يقارن العرب بـ «الشعوب البدائية!» حين يقول : «ان ظاهرة الإيمان بالخرافات هذه وممارسة الطقوس والتعاويذ والعادات ــ يضع الكاتب هنا بين قوسين كلمتين بالانكليزية دون أي داع ـ التي تنتقل من جيل الى جيل لدى الشعوب البدائية...».

إننا أبداً لسنا من المدافعين عن المعتقدات الغيبية والخرافات والتعصب الديني، ولكننا تعلمنا من تجارب الزمن أن نطرح التساؤل التالي : هل مشاكل البشرية وكوارثها خلال هذا القرن وحده أتت من المؤمنين باللاهوت وعلم الغيب وأهل البادية، أم على العكس؟ أليس قيام أكبر حربين عالميتين قامت بهما تلك الدول التي تحمل آخر ما ابتدعه العلم والعلمانية من ماركسية وقومية اشتراكية وليبرالية؟ ثم نسأل هل هناك مجتمع أو انسان يمكن أن يتمسك بالحياة من دون خرافة وحلم. حتى لو كانت باسم الحرية الليبرالية أو الجنة الشيوعية؟ ثم كاتبنا نفسه أليس هو من المؤمنين بخرافة (أصلنا العربي البدوي والحداثة التقدمية)؟ لينظر الكاتب

حوله حيث يعيش في نيويورك وليستقصي درجة الايمان بالغيب حتى في الوسط الأكاديمي الأمريكي والغربي... لينظر الى الكنائس حوله وليطالع الصحف والاعلانات اليومية عن قراءة الكف والشفاء بالسحر والانتماء للطوائف والأديان العجيبة الغريبة! كل هذا يغيب عن دعاة الحداثة والتقدمية، بل يصل الأمر بهم لحد الاعتقاد بأنه حتى خرافات الغرب ومعتقداته الغيبية واللاهوتية هي تقدمية علمانية حداثية!

منذ أوائل هذا القرن سقطنا في تلك «الثنائية التفاضلية التبسيطية» التي ترى جميع الاختلافات في الكون والمجتمع إما أسود أو أبيض، إما خير مطلق أو شر مطلق: تقدم أو تخلف، علم أو خرافة، حضارة أو بداوة، علمانية أو تدين، مادية أو مثالية، قومية أو قطرية، اشتراكية أو رأسمالية، وهكذا دواليك. إنها «ثنائية انفصامية» صنعها الغرب وسببت لنا الكثير من الانقسامات والعقد النفسية والكوارث الاجتماعية. إننا لا ندعي أبداً بعدم وجود «الخير والشر» في الحياة، بل نعم هناك السلام والحرب، الصحة والمرض، الراحة والتعب، الطيبة والقسوة، الحرية والقمع، الأمان والقلق، الغنى والفقر، الخصب والجفاف، البناء والدمار، ... الخ. إنها ثنائيات تناقضية واقعية ومعاشة ولكن من الخطأ تعميمها تلقائياً على (المجتمعات وتواريخها وقيمها الأخلاقية وأساليبها السياسية) كما أوهمنا بذلك الغرب منذ القرن الماضي. الغرب نفسه بدأت فيه قطاعات مهمة من المثقفين تدرك مدى سذاجة العقل الغربي في فرضه هذه الثنائية التفاضلية وتعميمها التبسيطي على طبيعة مجتمع أو جماعة ما. إنّ أهم سبب (وليس السبب الوحيد) لتعصبنا وتخلفنا ليس بداوتنا وحدها (إن وجدت حقاً)، بل مصيبتنا تكمن بسقوطنا في مطب «الثنائية الغربية» واستمرار فقداننا لثقتنا بشخصيتنا كأفراد وشعوب أمام جحافل الهيمنة الغربية المادية والروحية. باسم التحديث والتقدم (حسب الذوق الغربي)، وللخلاص من ظلامية الحقبة العثمانية أقحمنا أنفسنا في حومة صراعات فكرية وفنية أدبية مغلفة ببرامج سياسية ذات مصطلحات رنانة لا توجد إلا في عقولنا وليس لها أي وجود في واقعنا ومجتمعاتنا.

صحيح أنه من واجبنا الاعتراف بعيوبنا وتفهم أسبابها، ولكن أيضاً من الخطأ المبالغة بعيوبنا و«جلد الذات» من خلال الاعتقاد بأن الشعوب الأخرى أفضل منا. طبعاً آننا ضد الطرح الديني والقومي المتعصب الذي كلما سمعك تتحدث عن عيوبنا رد عليك بالحديث عن عيوب الغرب (وانحطاطه وتفسخ أخلاقه). اننا مع الحل الأمثل وهو «الحل الوسط»: الحديث عن عيوبنا والبحث فيها ونقدها وإدانتها من دون الإصابة بـ «عقدة الخواجة» التي تعتبر الحضارة والأخلاق والتقدم والتطور لدى الغرب وكل العيوب والتخلف لدينا. يعني

لـدينا مـشاكلنا ونواقـصنا ولـديهم نواقـصهم ومـشاكلهم: إذا كانـت لـدينا المرأة، محجـورة ومقموعة ويبرر أحياناً حتى قتلها باسم العفة والشرف، فلديهم المرأة تائهة في وسط غابـة مـن وسائل الاثارة والتعري والابتزاز الجنسي ومخاطر الاغتصاب والتشتت بين حاجات الأمومة وواجبات العمل والانتاج التي قد تؤدي الى الجنون والإدمان والانتحار. إذا كان المواطن لـدينا مسكيناً خانعاً لمؤسسات العائلة والمدرسة ثم الجيش والادارة والدولة الـتي قد تسجنه وتقمعه وحتى تحكم عليه بالموت لمجرد أنه يحمل أفكاراً تختلف عن أفكارها؛ لكنك في الغرب لا تمـوت في السجن، بل تموت من التلوث وصخب مدن الحديد العملاقة وتهديد البطالة وحوادث الطرق وأمراض السرطان والتنفس والجنس الـتي تحصد الأرواح كل عام اكثر من سجون العالم الثالث وحروبه!

أمام هذه الحقائق التي تدعمها الاحصائيات والأرقام والـتي لا تغيب عـن علـم الكاتـب، خصوصاً وهو يعيش في (نيويورك) التي تعتبر واحدة من أكثر مدن العالم الغربي بمستوى الجريمة والانحلال الاجتماعي والتمايز الطبقي والعنصري. كيف يمكننا الحديث عن ضعف «الحس النقدي» عند الشعب الفلاني مقارنة بالشعب الفلاني؟ أي «حس نقدي» تمتلكه هـذه الحضارة الغربية التي حولت الانسان الى جزء ثانوي من آلة الانتاج الجبارة، ودمرت الطبيعة بنباتاتها وحيواناتها وأراضيها وبحارها وجعلت من التسلح وإشعال الحروب شرطاً مهماً لبقائها، وحولت العالم الثالث الى مزبلة لأسلحتها الفاسدة ومكائنها العتيقة وساحة لنهب الخيرات وتفريغ المنافسات بتشجيع الحروب والدكتاتوريات. وفوق كل هذا يبقى العالم الثالث بالنسبة للغرب مجالاً حيوياً للحديث عن الهمجية والتخلف والبداوة مقارنة (بنا نحن الغربيين) أصحاب الحضارة والتقدم والحداثة والديمقراطية والانسانية، ووو!!

إننا بحاجة ملحة لإعادة النظر في جميع المصطلحات والتعريفات والمفاهيم الأخلاقية والسياسية والفكرية والثقافية الـتي تعلمناها من الغرب في العصر الحديث، ثـم قدسناها وأصبحت من البديهيات التي لا تقتضي حتى التساؤل والتفكير!

الرؤية العرقية والبداوة الأزلية

النقطة المهمة التي تمحورت عليها جميع أفكار الكاتب، هي مسألة تـأثير (البداوة) على المجتمعات العربية. الحقيقة أن هذه النقطة مكررة ومكررة الى حد القرف وليس هناك شيء جديد في التطرق اليها. منذ طفولتنا ونحن نسمع الكبار يتحدثون عن بُعبُع البداوة هذا. أينما

ذهبنا في أي بقعة من الأرض تواجهنا تهمة البداوة هذه. أي كتاب نفتح مهما كانت لغته عن تاريخ العرب والحضارة العربية فإنه يبدأ بالحديث عن الصحاري والبعران والأصل البدوي للشعوب العربية والحضارة الاسلامية. الحقيقة أن فكرة «الأصل البدوي» فكرة مضخمة ومنفوخة أضعاف حجمها الحقيقي. يكفي التخلي عن «الفهم العرقي القومي» لتاريخ الشعوب العربية وحضاراتها والتحلي بحد معقول من الرؤية الواقعية الانسانية لاكتشفنا ان «البداوة» لا تشكل في حضورها وفي تأثيرها خلال جميع مراحل التاريخ أكثر من 20٪ أو 30٪ من المجتمعات العربية. الكاتب نفسه يستشهد بمثال يتناقض مع فرضيته تماماً. يقول ان نسبة البدو قبل قرنين في مصر كانت تشكل سدس السكان، يعني بدوي واحد مقابل خمسة من المزارعين والمدنيين. طيب لنفترض في أسوأ الأحوال وفي ظل انهيار الدولة والكوارث فإن نسبة البدو تزداد الى أقصى الحدود فتصل الى الثلث، أي بدو 30٪ و 70٪ غير بدو! هل من المعقول بهذه الحال أن نختصر عقلية وروحية مجتمع بأكمله حسب عقلية ثلث سكانه المهشمين ثقافياً وسياسياً واقتصادياً!

لا أحد يعلم كيف يتسنى للميول القومية العرقية امتلاك هذه القدرة العجيبة على التعامي عن الحقائق التي لا تحتاج رؤيتها حتى الى دراسة وبحث، بل يكفي رؤية الواقع من دون آيدلوجيات طنانة تبهر البصر والبصيرة: هل أهل العراق منذ أن وجد النهران وبعدهما الانسان هم بدو أم مزارعون ومدينيون منتشرون على ضفاف النهرين.. هل حضارات سومر وأكد وبابل وآشور وبغداد هي حضارات بدوية أم زراعية حضرية؟ نفس الحالة بالنسبة لمصر والشام وشمال افريقيا. أليس نحن من صنع اولى الحضارات الزراعية وشيد أول المدن وكون أول الدول واخترع الكتابة والعلوم والفنون والآداب وأحتضن الأديان السماوية الثلاث؟ طيب أين هي البداوة الأولية التي ابتلينا بها واصبحنا بسببها بلا (حس نقدي)؟ ثم لماذا بالضرورة أن تكون عيوبنا ودكتاتوريتنا وتعصبنا نتيجة أصولنا البدوية؟ ألا يمكن أن نحمل جميع هذه العيوب وأكثر منها من دون أن تكون لنا أصول بدوية.. هل من الضروري أن يكون سكان المدن والأرياف بطبيعة «ديموقراطية!!» ومتفتحة وانسانية وتقدمية جدا جداً؟!

المشكلة تظل تكمن في الاعتقاد الخاطىء الذي فرضته علينا هذه الرؤية العرقية القائلة بأننا جميعنا نحن «العرب» أو قل نحن «الناطقين بالعربية» تلقائياً منحدرين مباشرة، دماً ولحماً وروحاً من تلك القبائل البدوية التي تشكلت منها الجيوش الاسلامية الفاتحة. ولكن أية مراجعة للوضع

التاريخي أثناء الفتح تكشف لنا الحقيقة الساطعة التالية : في فترة ظهور الاسلام كان سكان الجزيرة العربية كلها بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة. بينما سكان العراق وحده بين ستة الى سبعة ملايين نسمة(2)، أغلبيتهم الساحقة من الزراع وسكان المدن الناطقين بالآرامية (السريانية) المنتشرين في الحواضر التي تعمر ضفاف دجلة والفرات من نينوى حتى الخليج. وكان معظم سكان العراق قبل الفتح مسيحيين نساطرة مع أقليات من اليهود والصابئة والمانوية. أما البدو فقد ظلوا طيلة تاريخ النهرين على أطراف ضفاف الفرات الغربية. ظلوا أقلية مهمشة وتابعة ثقافياً ودينياً للحواضر العراقية، والدليل على هذا أن القبائل البدوية العربية التي قطنت العراق وسوريا قبل الاسلام اعتنقت المسيحية واللغة السريانية في الحيرة وبُصرى(3).

لقد ظل البدو منذ عهد السومريين والأكديين حتى العباسيين والعثمانيين لا يزدادون عدداً وأهمية إلا عند ضعف الدولة العراقية. يبرز دورهم الاجتماعي والعسكري من خلال الغزو والاستيطان والتحالف مع الأمراء والملوك. نفس الحالة يمكن ملاحظتها في تاريخ سوريا وعموم الشام. أما مصر فقد عاشت نفس الحالة ولكن بدرجة أقل بسبب طبيعة نهر النيل المحاط بصحارى واسعة ونائية بعيدة عن مناطق ترحال البدو في سيناء من الشرق والصحراء الليبية من الغرب(4).

يتوجب التأكيد أن البادية (وخصوصاً بادية الشام) بالنسبة لسوريا والعراق ظلت دائماً تغذي المشرق (الهلال الخصيب) بالقبائل البدوية(5)، ولكن البادية لم تكن المصدر الوحيد لتكوين المجتمعات العربية الحالية. إن المصدر الأول والأهم لتجديد السكان هم سكان هذه البلدان أنفسهم من زراع ومدينيين. جميع البحوث التاريخية والآثارية تتفق على أن البلدان العربية الحالية من العراق حتى المغرب ظلت مسكونة بالبشر منذ عشرات الآلاف من السنين، بل إن البحوث الأخيرة أثبتت أن (الانسان الذكي ـ كرومانيون) قد انبثق من الشرق الأوسط وشمال افريقيا(6). في هذه المنطقة نشأت أول المستوطنات الزراعية وأول المدن وأول الدول والحضارات، إذن أليس من المعقول أن هؤلاء الناس المستوطنين منذ القدم هم الذين يكونون المصدر الأول والأساسي لتجديد المجتمعات وديمومتها؟ رغم تغيير اللغات والأديان والدول إلا أن الديمومة السكانية الوطنية تبقى هي الأصل والدليل على هذا اتفاق الباحثين التاريخيين على التشابه البدني «العرقي» بين العراقيين الحاليين وهياكل العراقيين القدماء الموجودة في التماثيل والرسوم والمقابر(7)، نفس الحال لوحظ بالنسبة للمصريين الحاليين وتشابههم مع المصريين القدماء.

طبعاً لا ننكر أبداً دور الصحراء بتصدير البدو الى البلدان العربية الحالية ، ولكن ثمة مصادر سكانية أخرى غير الصحراء لا تقل أهمية عنها. هل نسينا أن العالم العربي لا تحده الصحارى فقط ، هناك حدود أخرى هي القارات الثلاثة التي تحيطه : افريقيا وآسيا وأوربا. مصر مثلاً ظلت طيلة تاريخها تستقبل مصادرها السكانية كالتالي : أولاً سكانها الأصليين الذين قطنوها منذ التاريخ السحيق ، ثم من الشرق حيث الجماعات البدوية والحضرية التي ظلت دائماً وحتى الآن تأتي من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء ، ثم من الغرب حيث قبائل ليبيا وشمال افريقيا ، أما من الجنوب فكانت تأتي قبائل النوبة (السودان حالياً) ، أما من الشمال فكانت الجماعات الأوروبية (الرومانية واليونانية) التي ظلت تأتي مصر عبر البحر المتوسط ، يضاف الى كل هؤلاء الجماعات الآسيوية التركستانية والقفقاسية والايرانية والعراقية التي ظلت تستقر في مصر عبر الاحتلال أو الهجرة.

بالنسبة لحالة العراق ، فإن مصدره السكاني الأول هو سكانه الأصليون أنفسهم الذين صنعوا الحضارة السومرية الأكدية الموجودون في العراق منذ التاريخ السحيق. أما مصدره الثاني فهي الجماعات الشامية (السامية) البدوية والحضرية التي ظلت تغذي العراق سكانياً منحدرة من أعالي الفرات أو عبر بادية الشام. يضاف الى ذلك مصدر مهم لسكان العراق طالما تجنب ذكره القوميون خشية تشويه أسطورة نقاء الدم العربي لشعب العراق ، فالحدود الشرقية والشمالية ظلت منذ الأزل تغذي النهرين بالقبائل والجماعات الرعوية الآسيوية (آريون وتركستان وقفقاس وأرمن) الذين ظلوا يذوبون في الغالبية العراقية ويتبنون حضارتها ولغتها ودينها. مثلاً حتى أواسط هذا القرن ظلت القبائل الرعوية الكردية تهبط من جبال زاغاروس وتأتي لتستقر في سهول أربيل وكركوك والموصل. بفضل الدعم العثماني تمكنت هذه القبائل من فرض الاسلام واللغة الكردية على المناطق المسكونة أصلاً بالجماعات السريانية المسيحية[8]. يعني أن العراقي الحالي من الشمال حتى الجنوب بدمه وبدنه وتكوينه العرقي والروحي لم يحمل فقط مواريث البدو العرب كما يُشاع بل هو يحمل قبل كل شيء مواريث أسلافه الأوائل (السومريين والأكديين) ثم مواريث الجماعات الآسيوية (الآرية التركستانية الكردية القفقاسية الأرمنية) بالاضافة الى

المواريث البدوية العربية، وهذا التنوع في الأصول نلاحظه على العائلة العراقية الواحدة وعلى وجوه الأشقاء مختلفي الأشكال والألوان!!

إن الأصل البدوي العربي الضخم والمبالغ به يستند الى الفهم العرقي القومي الذي فرضه علينا المؤرخون الغربيون: أوهمونا بأن قوة عروبتنا تكمن في مدى إيماننا بأصلنا البدوي العربي القح، وبالتالي نجحوا بفصلنا (عرقياً) عن تواريخنا السابقة للفتح الاسلامي بالاضافة الى فصل الناطقين بالعربية عن اشقائهم في الوطن من غير الناطقين بالعربية. أراد الغربيون بذلك التخلص من تلك «العقدة المزعجة» المتأتية من شعورهم بأن دينهم المسيحي قد صنعه أجداد هؤلاء «العرب المسلمين»، ولأننا أيضاً الورثة (العرقيين) للحضارات الانسانية الكبرى في مصر والعراق والشام وشمال افريقيا. يبدو أن مصلحة الغرب هذه التقت أيضاً مع مصلحة الصهيونية لتبرير ادعاءاتها بأجنبية الشعب الفلسطيني عن أرضه وعن ميراثه الكنعاني اليهودي الآرامي المسيحي، ما دام الفلسطينيون منحدرون (عرقياً) من نسل القبائل العربية البدوية التي وصلت فلسطين بعد طرد اليهود!!

❖ ❖ ❖

إن دراسة طبيعة المجتمعات العربية ومشاكلها وكذلك دراسة أي مجتمع آخر يجب أن تتجنب الوقوع في شرك التبسيطية والنظرة الأحادية والاستناد الى منهج واحد محدد. إن الوجود الاجتماعي أشبه بالوجود الكوني، من الصعب جداً الحكم عليه من خلال رؤية واحدة ومنهج محدد. هناك مناهج للبحث والتحليل عديدة، منها المنهج الاقتصادي الماركسي الذي يؤكد على العامل الطبقي، وهناك المنهج الديني المثالي الذي يؤكد على العوامل الايمانية والإلهية، وهناك المنهج العرقي الذي يؤكد على ديمومة الخصائص القومية مهما اختلف الزمان والمكان، وهناك المنهج الجغرافي الذي يؤكد على العوامل الجغرافية والطبيعية في التأثير على المجتمع. ثمة مناهج أخرى عديدة معروفة وغير معروفة، منها مثلاً المنهج (البابلي) الذي يؤكد على دور الكواكب وتأثير النجوم في تصرف الأفراد والشعوب، وهذا المنهج يزداد أتباعه يوماً بعد يوم عبر الاهتمام بعلم التنجيم.

نقول أن كل واحد من هذه المناهج يحمل جزءاً من الحقيقة الكلية التي لم ولن يستوعبها منهج واحد أو معتقد حتى الآن. إن هذه المناهج والنظريات أشبه بالثقوب في الجدار المطل على الحقيقة الكونية. من يبتغي معرفة أكبر قدر ممكن من الحقيقة عليه النظر خلال أكبر عدد من الثقوب (المناهج أو الرؤى أو النظريات) المنتشرة في الجدار.

هذا هو المنهج الذي ندعوه بـ «المنهج الوسطي» الجامع بتنوع وديناميكية بين مختلف المناهج الانسانية السابقة واللاحقة. إن هذا «المنهج الوسطي» يساعدنا على تجنب السقوط في شرك التعصب (الغربي والبدوي!)، ويجعل رؤانا تتقبل الاستفادة من جميع التجارب الخاصة والعامة. المنهج الوسطي المنفتح والمتنوع سيخلصنا من (عقدة الخواجة) ويساعدنا على تجنب هذه التبعية التلميذية للرؤية الغربية (وثنائياتها الانفصامية) التي تغلق العقل وتقتل الثقة بالنفس وتلغي الاحساس بتمايز الذات لدى الأفراد والشعوب.

« سليم مطر ـ جريدة القدس 10 – 12 – 1996 — لندن »

المصادر

1ـ من أشهر ممثلي هذه النظرية العرقية، العلامة الفرنسي (رينان) عن (تخلف العرق السامي). لقد تحدث عنه ـ ادوارد سعيد ـ الاستشراق ـ ص 163.

2ـ حول الاحصائيات السكانية التاريخية، راجع :

ـ فيليب فارج ـ المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي ـ الفصل الأول ـ دار ابن سينا ـ القاهرة ـ 1994.

ـ شارل عيساوي ـ تأملات في التاريخ العربي ـ الفصل الثاني ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت ـ 1991.

3ـ عن السريان في العراق والشام قبل الاسلام وبعده، راجع :

ـ الأب البيرو أبونا ـ تاريخ الكنيسة السريانية ـ 3 أجزاء ـ دار المشرق ـ بيروت ـ 1986.

ـ نينا بيغوليفسكايا ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى ـ دار الحصاد ـ دمشق ـ 1990.

ـ الأب جورج قنواتي ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت .

4ـ عن طبيعة الهجرات البدوية وتنقلات الشعوب في العراق وسوريا ومصر، راجع :

GEORGES ROUX - LA MESOPOTAMIE-SEUIL - PARIS - 1985

(انه كتاب بالفرنسية ومترجم عن الانكليزية، باعتقادنا أنه أفضل مصدر عن تاريخ العراق القديم وتفاصيل مكوناته الحضارية والسكانية).

ـ فيليب حتي ـ خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى ـ مجلدان ـ الدار المتحدة ـ بيروت ـ 1983.

ـ برهان الدين دلو ـ حضارة مصر والعراق ـ الفارابي ـ بيروت ـ 1989.

ـ فيليب حتي ـ تاريخ سوريا ـ مجلدان ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1958.

5ـ عن دور البدو في العراق زمن العثمانيين، راجع :

ـ علي الوردي ـ لمحات اجتماعية ـ ثمانية اجزاء ـ دار كوفان ـ لندن ـ 1992 (لاحظ مثلاً، الجزء الخامس ـ القسم الثاني ـ الفصل الثامن).

6ـ عن آخر النظريات عن أصل الانسان، راجع :

TOUS PARENTS. P. 53 – Museumd' histoire Naturelle-Geneve-Paris- 1995.

7ـ عن التكوين البدني (العرقي) لسكان العراق، راجع (الموسوعة الاسلامية) باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ قسم العراق ـ السكان.

8ـ عن تاريخ التوسع الكردي، راجع الموسوعة الاسلامية ـ قسم الأكراد.